الخضوع، والخطاب، والقوة

إن أى شرح للخطاب على أساس من مشاعر المتكلم ودوافعه الشخصية سيكون من المنظور المادى عاملاً على التضليل، ذلك بأن الاهتمام بالعوامل الذاتية يعشى أبصارنا عما قد يبدو ـ فى المقارنة ـ خروجاً يسيراً عن الموضوع. وهكذا شأن المجتمع الذى نعيش فيه؛ فهو مجتمع قائم على أساس الاستغلال، وأكثر من هذا فإن هذا النوع من الاهتمام سوف يعشى أبصارنا عن إمكانية التغيير، ولو أن الحقيقة البسيطة الماثلة فى الاستغلال قد أخذت منذ البداية فى الحسبان بدلاً من ذلك، لصار من الواضح أن الخطاب ليس ذاتياً، وأن الأفراد يوجَدون حقاً بوصفهم «ذوات» لأنهم صاروا خاضعين، يلزمون شيئاً من الهوية الخيالية ويعتمدون عليها. ومع أن هذه المسألة قد نوقشت فى الفصل الثانى فإن المشكلات التى أثيرت هناك لم تحل جميعاً؛ إذ كيف يتم خضوع الناس؟ وما الدور الذى يعزى إلى الخطابات فى وضعنا فى أماكننا؟ وما ذلك الخضوع؟ فهذه الأسئلة يمكن أن تعين على القيام بنظرة أكمل إلى الطرق التى يتم إنشاء الخطابات بها.

إن ما تمت مناقشته من الإيديولوجيا والخطاب فى الفصلين الثانى والثالث يسمح للمرء بالقول إن للإيديولوجيات كياناً مادياً، وإن الخطابات تشكل جزءاً من المجال الإيديولوجى، وإن الإيديولوجيات ممارسات تنتهى إلى الإخضاع. ولكى أطور هذه المناقشة أود ـ أولاً وقبل كل شىء ـ أن أسترجع ما سبق تحديده؛ فليست هناك إيديولوجيا (أى ليس هناك نظام من الأفعال، والمعانى، والمعتقدات) تقوم بذاتها؛ إذ الإيديولوجيات تتشكل فى علاقتها بعضها ببعض. إنها تتشكل على نحو متعارض خلال الصراعات التى تنفذ إلى المؤسسات المختلفة، وإلى أجهزة الدولة المختلفة. وترتبط هذه الصراعات، وإن كان ذلك بصورة غير مباشرة، بصراع الطبقات المتجذر ـ آخر الأمر ـ فى علاقات الإنتاج. وإن هذه الخطابات لتأخذ معانيها من خلال انغماسها على نحو متكرر فى تلك الصراعات.

وهذا الوصف يفتقر إلى نظرية عن الدور الذى تقوم به الخطابات فى عملية الإخضاع، ولن يسعف افتراض آلية مفردة وعامة، يمكن أن تكون جوهر كل إخضاع ـ لن يسعف فى تعويض ذلك النقص؛ لأنه قد يفضى بنا إلى المثالية. وبدلاً من هذا قد يكون من المحتمل تحقيق تقدم إذا نحن رجعنا إلى أشكال الإخضاع وإجراءاته القائمة تاريخياً، واستكشاف موقع الخطاب فى نطاق هذه الأشكال. وفى هذا الصدد يصبح التحليل الذى قام به فوكو لنظام الإخضاع وإجراءاته الأخرى، وعلى وجه الخصوص فى كتابه *النظام والعقاب* **Discipline and Punish** (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب) ـ يصبح نموذجياً ويمكن التعويل عليه إلى مدى بعيد.

الإخضاع والبدن

وفقاً لأسلوب الإدارة اليومى للمؤسسات يقوم النظام فيها بعمليات التوجيه والتفريد والإخضاع فى صرامة، ويصنع الرعايا المطيعين الذين يسهل قيادهم، ذلك بأن كثيراً من الناس، سواء فى المدرسة، أو المصنع، أو المستشفى، يصبحون محاصرين بكل التعليمات والمواقيت والاختيارات التى تفرض النظام. ولا يدع تحليل فوكو إلا مجالاً يسيراً للشك فى أن النظام «تقنية للإخضاع مدروسة وبارعة» (ص ٢٢١).

وهذا الإخضاع يشمل أبدان الناس. وتكشف دراسات فوكو عن المدى الذى تصل إليه تقنيات الإخضاع فى السيطرة عن طريق البدن. فالنظام يحدث تأثيره ـ على سبيل المثال ـ عند «المرحلة التى تتغلغل فيها القوة فى طبيعة الأفراد ذاتها، وتمس أبدانهم، وتنفذ إلى أفعالهم ومواقفهم، وإلى خطاباتهم وعمليات تعلمهم، وإلى شئون حياتهم اليومية» (١٩٧٥، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ٣٩). وعندما يشمل الإخضاع البدن فإنه يشمل كذلك شيئاً آخر.

ويبدو لى أن العبارة التى تقرر أن «الإخضاع الإيديولوجى» هو «العلاقات العملية المتصلة بالبدن واللغة والفكر» (بيشو ١٩٨٣، ص ٣٣)، تقدم تعريفاً مادياً فى اتجاهه، وتعيّن ماهو متضمّن سوى ذلك. إنها عبارة غامضة بعض الشىء؛ وعندما يتحقق الكشف التام عن فحواها، فإنها قد تعيد إلى الذهن ـ بادئ ذى بدء ـ فكرة أن الإيديولوجيات وعمليات الإخضاع التى تقوم بها مترابطة؛ فالإيديولوجيات بصفة أساسية ـ وإن لم يكن على وجه الحصر ـ ممارسات طبقية، ويمكن لهذه العبارة ـ ثانياً ـ أن تدل على أن الإخضاع يربط بين عمليات المعنى والأبدان.

ومن أجل الوصول إلى فكرة مسعفة عن الأشياء التى يشتمل عليها الإخضاع ويؤلف بينها، يمكننا أن نفهم الإخضاع على أنه الربط بين الأبدان وعمليات المعنى، والمعتقد، إلخ.، فى نطاق ممارسات الصراعات الطبقية وغيرها من الصراعات. على أن أشكال الإخضاع لا تمتثل كلها للانضباط؛ إذ إن بعضها يحدث بوصفه أداة للمقاومة، ومع ذلك ففى وسع أبحاث فوكو أن تقول لنا الكثير عن تلك الأشكال التى هى آلات للانضباط وأدوات تتطور قوة الطبقة المهيمنة وتُمارس من خلالها.

وفى وسع المرء أن يقول إن النظام برجوازى. ومن الممكن إضافة مزيد من البيان عن مكانه فى الكيان الجماعى العام، عبر أسطر مألوفة فى مقالة أ د أ. ولكن يكون من الخطأ النظر إلى الرأسمالية على أنها «باعثة» النظام، أو وصف تقنيات الإخضاع النظامى بأنها اختراع برجوازى من أجل «تأكيد سيطرته» (فوكو ١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٢٢١، و١٩٧٧د، مجموعة ١٩٨٠، ص ١٥٦). ومع ذلك فنحن فى حاجة إلى ملاحظة أن إجراءات الإخضاع «ليست مجرد تشكيل (للغاية النهائية) التى تنتهى إليها آليات الاقتصاد الأكثر جوهرية» (فوكو ١٩٨٢، ص ٢١٣). ذلك بأنها تتمتع باستقلال ذاتى نسبى؛ وأن بحث فوكو - فى هذا الإطار - يذهب - كما هو الحال فى مقالة أ د أ - إلى أن العلاقة الأساسية للإجراءات بالقاعدة علاقة تعين على ضمان إعادة إنتاجها (أو - لنقل إضافة إلى ذلك - عدم ضمان إعادة إنتاجها). وفى إطار الرأسمالية يصبح النظام جزءاً مما يجعل «تكوين البدن بوصفه قوة عمل» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٢٦) أمراً ممكناً فى داخل الإنتاج وخارجه (وعلى سبيل المثال فى المصنع والمدرسة كليهما). ومع ذلك ففى الوقت الذى يركز فيه بحث فوكو على قوة العمل، تتبنى مقالة أ د أ علاقات الإنتاج على أنها أساسية وليست مجرد نافلة، وسوف أعود إلى هذا الاختلاف.

وإلى جانب النظام يصف فوكو إجراءين آخرين للإخضاع، يرتبطان بالقوة الأعلى وحكم القانون؛ وكلاهما ينتمى إلى القرن الثامن عشر. وقبل الانتقال إلى التفصيل فى هذا، أود أن أوضح أن دراسة فوكو تربط بين كل إجراء من الإجراءات الثلاثة وشكل من أشكال العقوبة. ولا يرى فوكو - شأنه شأن ألتوسير - أن سيادة طبقة على أخرى تنشأ عن جهاز من أجهزة الدولة القمعية لاغير (يكتفى بتسميته جهاز الدولة)، تمارس فيه الشرطة والمحاكم والجيش عملها فى عنف يتفاوت فى ظهوره قلة وكثرة: «هناك نوع ما من التأطير يلزم تحاشيه هنا -

ومن باب المصادفة أنه لا يظهر عند ماركس ـ يتألف من إسناد السلطة إلى جهاز الدولة، جاعلاً منه أداة السلطة الأساسية والمتميزة والرئيسية والمتفردة تقريباً لطبقة على أخرى» (١٩٧٦، مجموعة ١٩٨٠، ص٧٢). وتعيّن مقالة أ د أ طريق الخروج من هذا التأطير، إنها تتفق لا مع وجود جهاز قمعي للدولة فحسب، بل مع وجود أجهزة إيديولوجية مختلفة للدولة كذلك، ولكنها ربما حاولت أن تحتفظ بالتمييز واضحاً للغاية بين قوة العنف التى تُمارس على البدن وإجراءات الإخضاع الإيديولوجي، كما لو كانت هذه الإجراءات مجرد نداء أو استدعاء. ويذهب بيشو إلى أن تحليل فوكو يمكن أن يصحح هذا (١٩٨٢، مجموعة ١٩٨٢، ص٢١٩)؛ وذلك لأن أحد الآثار المترتبة على دراسته للروابط بين العقاب والإخضاع يتمثل فى الميل ـ على نحو هو فى الغالب مزعج حقاً ـ إلى الارتياب فى «موقف التعارض بين العنف والإيديولوجيا» (فوكو ١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٢٨). ذلك بأنه فى الوقت الذى لايتماثل فيه العقاب والإخضاع، يبدو أن أحدهما لم يبتعد كثيراً عن الآخر على الدوام؛ ففى وسعنا أن نقول إن الإخضاع يقوم بمهمته عن طريق البدن، ولكن دون أن يكون البدن هدفاً.

وتصف قصة «التعذيب الفظيع»، التى يبدأ بها كتاب «النظام والعقاب» ـ تصف ممارسة اجتمع فيها العنف فى أقصاه مع الإخضاع الإيديولوجي، ففى فرنسا، التى تركز دراسة فوكو عليها، استمرت هذه الممارسة إلى القرن الثامن عشر بوصفها مشهداً عاماً للقتل الذى تمارَس من خلاله السلطة الأعلى، لقد كان التعذيب عنيفاً ومهلكاً، ويبين فوكو فى وصفه كيف أنه كان كذلك طقساً إيديولوجياً يُخضع الضحية حتى عندما يشوهها ويقتلها، مخضعاً كذلك فى الوقت نفسه الجمهور الذى تجمع للمشاهدة، وهو يصنع هذا عن طريق إكراه بدن المتهم على أن يكون دالاً على معنى.

ويرتبط البدن فى طقس التعذيب ارتباطاً قوياً بعمليات المعنى: «فالرجل المذنب يعلن عن جريمته كما يعلن عن حكم العدالة الصادر ضده بأن يحتمل أثرهما المادى على بدنه» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٤٣). فقد اختلف العنف من حيث نمطه، وحدته، ومدة استمراره، وفقاً لظروف الجريمة؛ فقد تقرر وفقاً لـ«مبدأ قانونى»، وعلى هذا كان من الممكن تكييفه لكى يلائم الجريمة (ص ٣٤). ومن هنا كان بدن المذنب مرغماً على الدلالة على الجريمة التى ارتكبت. وفى الوقت نفسه كانت المبالغة نفسها فى العنف أمام الشهود لها معناها بوصفها عرضاً للقوة المطلقة، لأن التعذيب كان طرفاً من «سياسة فى إثارة الرعب تجعل

كل شخص على وعى ـ من خلال بدن المجرم ـ بالحضور غير المحدود للسلطة العليا» (ص ٤٩). ويبين هذا الوصف أن مشهد العنف كان قد أصبح له دلالاته من منظور القانون ومن منظور سلطة الحكم المطلق على السواء.

وقد يكون من المثالى أن نفترض أن التعذيب الفظيع فى فرنسا أو غيرها من بلدان أوروبا قد وصل إلى نهايته، وأن ما يسمى فى حالات كثيرة إصلاح قانون العقوبات قد تولد عن «إدراك جديد» (ص ٨٢). وتُرجع دراسة فوكو نشأة «إصلاح قانون العقوبات» إلى أواخر القرن الثامن عشر خلال صراعات الطبقة البرجوازية ضد سلطة الحكم المطلق وضد الممنوعات الشعبية (ص ٨٧). وفى الوقت الذى ألغيت فيه الأعمال الوحشية المتطرفة، صارت العقوبة هى الشىء الأكثر شيوعاً.

ومع أن العقوبة كانت أكثر تحفظاً فى عنفها، فإنها لم تكن لتصبح أقل ارتباطاً بعملية الإخضاع الإيديولوجى. ويركز وصف فوكو لإصلاح قانون العقوبات على مقترحات هذا الإصلاح وخططه الأولية، وكيف أنها تهدف إلى «إعادة تأهيل الأفراد» بوصفهم «ذواتٍ قانونية» (ص ١٣٠). لقد أريد بالعقوبات الإصلاح وإعادة المذنب إلى حظيرة المجتمع، وعلى سبيل المثال فالمشرد المتهم «بالبلادة» لابد أن يعاقب، وذلك «بإرغامه على العمل» (ص١٠٦). وفى حين خضع مشهد التعذيب للقانون بوصفه آلة القوة الأعلى، صارت خطط إصلاح قانون العقوبات تستهدف الخضوع للقانون بوصفه «العقد» و«مجموعة القوانين التى تحكم المجتمع» على السواء (ص ٨٩).

إن هذه الصور السريعة نفسها لممارسة التعذيب فى ظل الحكم الإقطاعى، وللخطط اللاحقة الخاصة بإصلاح قانون العقوبات، قادرة على أن تطرح الشىء الكثير. إنها تطرح ـ بدلاً من شكل ما عام لكل ضروب الإخضاع ـ إمكانية قيام ضروب مختلفة للإخضاع، تعمل بطرق مختلفة ويتم تشكيلها وفقاً لألوان خاصة من الصراعات التاريخية. وهى تخبرنا ـ بالإضافة إلى هذا ـ بافتقارنا إلى تفرقة واضحة بين العنف والإخضاع، حيث يتجه الإخضاع إلى الربط ـ بطريقة غير محددة ـ بين الأبدان وعمليات إنتاج المعنى الإيديولوجية. والوصف الذى قدمه فوكو يغطى فى الواقع مساحة أكبر من هذا، وسوف يتم فى الجزء الآتى من هذا الفصل تناول الجانب الخاص بدور الخطاب على وجه الخصوص، أى الكلام والكتابة، فى المجالات التى تمارس فيها عمليات الإخضاع. على أنه لن يضيف كثيراً أن نوضح كيف أن

شخوصاً آخرين فى المجتمع يتعرضون ـ إلى جانب المذنبين ـ لعمليات الإخضاع. ومع ذلك فقد تم إيضاح هذه المسألة فى المثال الثالث الذى وصفه من أمثلة العقوبة، ألا وهو عقوبة السجن، أو على الأحرى فى الإجراء الخاص بعملية الإخضاع النظامية المرتبطة بها. وسرعان ما صار الاحتجاز فى السجن ـ على الرغم من خطط إصلاح قانون العقوبات ـ الأداة المعترف بها فى أوروبا وأمريكا لعقاب الأغلبية العظمى من الجرائم. ويذهب فوكو إلى أن تقنيات الحركة والسكون والتربص والعمل المنظمة والمحددة بمواقيتها فى السجن ـ هذه التقنيات قصد بها أن تنتج «شخصاً مطيعاً؛ أى الفرد الذى يخضع للعادات، والقواعد، والنظم» (ص ١٢٨)، وهذه هى بعض تقنيات ما يسميه «النظام».

وإذا كانت هذه التقنيات قد عملت عملها لدى كثرة عظيمة من الناس خلاف السجناء، فذلك لأنها لم يقتصر الأمر فيها على السجن. وقد حلل البحث لدى فوكو فى أناة عملية التنظيم التى أُدخلت إلى المدارس والمستشفيات والمصانع والجيش منذ أن بدأت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وسوف أتوقف فى بحثه عند الخطوط العريضة التى رسمها للنظام بوصفه إجراء لعملية الإخضاع الإيديولوجى، التى تجسد نوعاً محدوداً من الإكراه ينتشر فى يسر.

لقد كان النظام الذى أُدخل [إلى تلك الأماكن] «تدريباً» للبدن (ص ١٦٦). ودراسة فوكو تعيّن مبادئ النظام الأساسية بوصفها ضابطاً لحركة ألوان النشاط ولتوقيتها ومكانها، ويمكن إدراج البدن من خلال سيره وفى إمساكه ببندقية وإطلاق النار منها، فى نسق محدد من الحركات، كما أن «الكتابة اليدوية الجيدة» تستند إلى فن برمته فى وضع الجسم البشرى (ص ١٥٢)، وفى إطار النظام بدأ إحراز انضباط دقيق للإيماءة، والسلوك، والنشاط، حتى يمكن تكييف البدن لكى يصبح «أكثر طاعة بقدر ما يكون أكثر نفعاً» (ص ١٣٨). وإلى جانب الحركة، تم التنظيم التفصيلى للتوقيت، ولتعاقب ألوان النشاط، وللمكان الذى يمكن أن تشغله. وقد تم تقسيم الفراغ المتاح فى المصانع والمدارس حتى يمكن فرض النظام أولاً وقبل كل شىء عندما يتم توزيع العمال وفقاً لمراحل الإنتاج المختلفة، أو عندما يتم تنظيم تلاميذ المدارس فى «صفوف أو مستويات» (ص ١٤٦). إن النظام يضع الناس فى «أماكنهم».

لكن النظام الذى استُخدم كان أكثر من «عملية إكراه للأبدان» (ص ١٦٩)؛ فمنذ البداية لم تكن الأماكن الخاضعة للنظام أماكن مادية بكل ما للكلمة من معنى. ذلك بأن المكان الذى

وُضع فيه كل عامل فى المصنع كان كذلك عملاً، أو وظيفة، يمكن أن تشخصه، ذكراً كان أو أنثى، وقد ارتبط تصنيف التلاميذ فى مستويات فى المدرسة، أو نجاحهم فى القيام بأعمال متفاوتة القيمة ـ ارتبط بعملية تقويم يمكن لها أن تقرر ما قد يكون لديهم من قدرات، وعلى أى نحو هم صالحون. وهذه الأماكن الخاضعة للنظام حقيقية وخيالية على السواء؛ فهى تجمع بين أبدان الناس وتلك «الخصائص والأوضاع والمراتب» التى تحدد هويتهم (ص ١٤٨)، وعلى هذا النحو «يكون لكل فرد مكانه الخاص، ولكل مكان الفرد الملائم له» (ص ١٤٣).

والواقع أن ما يسميه فوكو «النظام» هو شىء «(يصنع) الأفراد» و«يجعلهم أسوياء» فى الوقت نفسه (ص ١٧٠، ١٨٣). ولقد حقق النظام الشىء الكثير للغاية عن طريق الإشراف والتقويم؛ فقد كان الإشراف، أو تحديق المشرف، هو أداة الإكراه التى تم عن طريقها تنظيم سلوك العمال أو التلاميذ والحكم على «جملة المنتمين إلى المجال غير المحدود من الخارجين على النظام» (ص ١٧٨ ـ ٩). ومن جهة أخرى يعد الامتحان أداة يتم عن طريقها فرض القدر المقبول من القدرة، أى المستوى العام؛ ومن خلال هذا يتم تعيين «الفروق الفردية». وهذا بمثابة «تعيين لكل فرد بعلامة دالة على هويته، ذكراً كان أم أنثى (ص ١٩٢).

إن ما تطرحه دراسات فوكو هو أن النظام بوصفه إجراء لعملية الإخضاع إنما يربط كل فرد حقاً بهوية، ويظل النظام، على الأرجح، واحداً من الإجراءات الأساسية لما يسميه «حكومة التفريد» (١٩٨٢، ص ٢١٢). ولكن ينبغى لنا ألا نخطئ فهم المعنى فى هذا؛ «فهو لا يعنى أن... نظامنا الاجتماعى يبتر الفرد، ويكبته، ويغيره؛ والأصح أن الفرد يتم إدراجه فى هذا النظام بكل عناية»، على الأقل من خلال التفصيلات الصغيرة التافهة للنظم وما يصحبها من إشراف وتقويم (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٢١٧، ٢٢٦). إن بحث فوكو لتقنيات النظام التى أصبحت شائعة فى القرن الثامن عشر، ومازالت معمولاً بها إلى أبعد حد، يمكنه أن يتخلص من تلك التبسيطات المسرفة التى تفترض أن الأفراد إذ يعكس بعضهم بعضاً إما أنهم مجرد صور وهمية أو أنهم كائنات طبيعية. والنزعة الإنسانية التى يسعدها أن تعلن أننا جميعاً نتقاسم طبيعة عامة نختلف فى نطاقها بما نحن أفراد، هى خيال له ما يدعمه من الواقع العملى: «إن الفرد هو بلاشك الذرة الخيالية فى صورة المجتمع (الإيديولوجية)»، ولكن الفرد كذلك يتم تكوينه و«تصنيعه» من خلال الممارسات العملية القائمة (ص ١٩٤).

وإذا كان هذا النظام يبنى الأفراد الخاضعين للمعايير البرجوازية، فإنه يؤدى عملاً آخر إلى جانب هذا. وتبين دراسة فوكو لنظام السجن أنه يُقصى أولئك الذين لا يمكن حملهم على الدخول فى النظام. إنه أداة للتفريق والحكم؛ أى أنه أداة لتقسيم أولئك المحكومين. ويتركز وصف فوكو على السجن من حيث إنه الموقع الذى يربط منذ نهاية القرن الثامن عشر بين العقاب و«آليات التنظيم التى كانت قوة الطبقة الجديدة تطورها» فى أوروبا وأمريكا (ص٢٣١)، على أن نظام السجن لم يحقق قط نجاحاً ملحوظاً؛ فالذين قضوا مدة فيه كان تحولهم إلى أفراد «جانحين» ينتمون إلى رفقة الإجرام، أرجح من تحولهم إلى أفراد مهذبين (ص٢٦٦). وهو يذهب إلى أن السجن بتخريجه هذا للجانحين، قد عثر ـ على نحو ظاهر التناقض ـ على وظيفته؛ ألا وهى الإقصاء. لقد صار السجن أداة لتشكيل المذنبين فى جماعة سهلة القيادة من الجانحين الذين قد يوضعون تحت «رقابة دائمة» تمتد إلى خارج جدران السجن (ص ٢٧٨). وعلى هذا النحو صار السجن سلاحاً فى الصراع الطبقى البرجوازى ضد الجماهير، أى أداة دائمة لتقسيم هذه الجماهير، تقوم بتنظيم أولئك الذين ليسوا عمالاً ووضعهم فى مواجهة العمال، حتى «لايكونوا رأس حربة للمقاومة الشعبية» (١٩٧٢، مجموعة ١٩٨٠أ، ص١٥).

إن نظام السجن يقصى الخارجين على النظام فى ظل الرقابة التى ترتبط بسجل إجرامى وتشكل الجانح «فى نطاق بيئة محددة فى وضوح ومسجلة فى بطاقات» (١٩٧٥أ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ٤٢). ومن خلال ما طرح هنا، اعتماداً على أبحاث فوكو المفصلة، قد نأخذ فى الحسبان أنه كان هناك ـ ومازال ـ أشكال مختلفة من الإخضاع، وأنها جميعاً قد تجسد درجة ما متغيرة من الإكراه، حيث يقع تأثيرها على البدن لربطه بعمليات إنتاج المعنى. لكن المعانى ليست وحدها ما يعتريه التغيير؛ فالمناهج التى تتصل بها تتغير كذلك. إن تقنيات النظام لاتُلحق التعذيب بالبدن أو تضع وصمة عليه من أجل أن تجعله دالاً، ولكنها ـ بدلاً من ذلك ـ توزع الأبدان فى أماكن وفعاليات مختلفة. إنها تعين حركات البدن وتفرض المعايير على نشاطه، وتنتبه إلى أى انحراف، وتقصى الخارجين على النظام. وعلى هذه الأنحاء يرتبط البدن بعمليات إنتاج المعنى؛ فهو مقيد بهوية، وبمستوى من المقدرة، ومواصفات وظيفة، وسجل إجرامى.

وقد ارتادت مقالة أ د أ أرضاً جديدة فى فهم الممارسات الإيديولوجية للإخضاع، التى تقوم على التضاد وتتشكل فى الصراع. وتحرز دراسة فوكو تقدماً مهماً فى تفصيل بعض ممارسات

الإخضاع؛ ومع ذلك فإنها تتخللها بعض الفجوات؛ وسوف أعود إلى هذه الفجوات فى قسم لاحق، وعلى وجه الخصوص فإن أسلوبها فى التركيز على ما هو سائد، وما ينتهى إلى ضبط أولئك المحكومين، قد يبدو ـ من بعض النواحى ـ أقرب إلى تجاهل أسس التمرد وعمليات المقاومة ـ مع أن فوكو يذكر حقاً أن الناس حاولوا فى بعض الأحيان مقاومة مشهد التعذيب السلطوى؛ فى الوقت الذى ينحو فيه وصفه لإصلاح نظام العقوبات إلى الإيحاء بأن هذه المقاومة قد نشأت فى الصراع عن موقف يعارض قوة السلطة المطلقة؛ وهو الموقف الذى لايتماهى معها. ولكن فى وسع دراسته أن تضيف إلينا الكثير كذلك فى فهم الخطاب اللغوى على وجه الخصوص؛ أى الكلام والكتابة. ولو أننا أمعنا النظر فى أمثلة الإخضاع الإيديولوجى، تلك التى سبق وصفها، لكان فى مقدورنا أن نبصر بالطرق التى انتهجتها هذه الممارسات فى تعيين مكان الخطابات وتحديدها ـ وأن ندرك، فى المقابل، الطرق التى انتهجتها الخطابات فى الإسهام لا فى عمليات الإخضاع هذه فحسب، بل فى مقاومتها كذلك. ومرة أخرى ستكون هناك بعض الفجوات.

الخطاب والإخضاع

ذهب بيشو Pecheux، منطلقاً من أ د أ، ومستخدماً فروض الفكر المادى، إلى أن الخطابات التى تتأسس فى اللغة، هى ـ مع ذلك ـ جزء من المناخ الإيديولوجى، وأنها يرتبط بعضها ببعض فى علاقة تضاد، ويحقق الخطاب معانيه بالإحالة إلى الموقف الإيديولوجى؛ فهو يتحدد حيثما استخدم سلاحاً فى الصراع. وقد سبق تقديم هذه الدعاوى فى الفصل الثالث، حيث أُخذ فى الحسبان هناك كثير من المسائل المتعلقة بالكيان المادى للخطاب؛ ولكن بعض هذه المسائل، وعلى وجه الخصوص المسائل المتعلقة بالآثار العملية للخطاب بوصفه أداة مباشرة أو غير مباشرة للإخضاع، لم يكن تناوله إلا عابراً.

من الممكن أن يكون الخطاب أداة مباشرة للإخضاع الإيديولوجى. وعلى سبيل المثال يكتب تلاميذ المدارس فى الامتحانات الكلمات التى تعلموها؛ فهذه الكلمات قد استخدمت للتمييز بينهم. إن كلماتهم تعيِّنهم وفقاً لمدى تطابق إجاباتهم مع الأسئلة أو ابتعادها عنها. ويمكن لدراسات فوكو أن تعين على إثبات المزاعم الأقدم وتطويرها؛ وذلك لأنها تبرز للعيان بعض آثار الخطاب فى نطاق ممارسات الإخضاع. وفى حين أن هذه الدراسات ليس لديها ما تقوله سوى القليل عن الخطاب المضاد كلية لما هو سائد، فإنها تقول لنا الكثير عن آثار

الخطاب السائد وعن الخطاب المواجه له فى الساحة نفسها. أولاً، يأتى الخطاب السائد؛ ففى طقس التعذيب الفظيع يُرغَم البدن، وقد ظهرت عليه آثار العنف، على الدلالة على عدالة العقاب. وبالإضافة إلى هذا يعلن كذلك حديثُ المدان أو الكتابة المنسوبة إليه حقيقة هذه العدالة ويخضعه لها. إن هناك خطاباً يعزى إليه؛ وكلمات هذا الخطاب لها معناها فى علاقتها بالقانون وبالسلطة الأعلى التى تعلن فى الطقس إدانته. ويصف فوكو فى شرحه كيف انتهى الأمر إلى أن «الرجل المدان» صار «هو المعلن عن إدانته الخاصة»؛ فمن خلال «الإعلان المعلق على ظهره أو صدره أو فى رأسه للتذكير بالحكم»، ومن خلال «الاعتراف الرسمى» الذى طلب إليه الإدلاء به، ومن خلال الكلمات التى طلب إليه قولها، يعترف المدان بجريمته، وبذنبه، وبعدالة إنزال العقاب به (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٤٣). لقد بذل الكثير لتشجيع الاعتراف؛ وليس أدل على هذا من إتاحة فرصة العفو فى آخر لحظة، حيث إن أولئك المدانين كان فى وسعهم حتى وهم تحت حبل المشنقة أن يحصلوا على تأجيل للحكم إذا كان لديهم «ما يقدمونه من بيانات إضافية» (ص ٥٣).

وإذا نحن استخدمنا أفكار بيشو، أمكننا أن نرى فى الإقرار بالذنب، والإعلان، والاعتراف الرسمى amende honorable، التى «قبلها» المدان «مختاراً»، «تماهياً» مع ما يدينه به القانون والسلطة العليا (١٩٧٥، ترجمة ١٩٨٢، ص ١٥٦ ـ ٧). ويقدم فوكو مثالاً «للرجل المدان الطيب» فى شخص فرنسوا بيار، الذى قتل زوجته فى عام ١٧٧٢، «لقد أراد الجلاد أن يخفى وجهه ليجنبه لعنات الجمهور، ولكنه قال: (إن هذا العقاب الذى أستحقه لم ينزله أحد بى حتى لا ينبغى للجمهور أن يرانى)...» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧، ص ٤٤). فهذا التماهى الذى يبدو حقاً غامضاً بعض الشىء ولكنه مناسب كل المناسبة، هو ما كان فى وسع الخطاب أن يحدثه من أثر فى المشهد العام لعملية الإعدام.

وإذا أردنا أن نمضى قدماً فربما تطلب الأمر منا أن نأخذ فى الحسبان أن مشهد التعذيب والإعدام بدا كما لو كان سلاحاً ضد ممارسات المقاومة الشعبية؛ فقد كان مشهداً عاماً (ولو أنه كان وراء الأبواب المغلقة لاختلف الأمر)؛ وهو مشهد كان فيه الخطاب السائد يسكت خطاب المقاومة الشعبية وممارستها ويتحكم فيها. وبناء على وجهة النظر هذه يمكننا أن نشرع فى إدراك أن الخطاب السائد يمكن مقاومته ولكن دون الإطاحة به، وذلك عن طريق أى شىء يلتزم بشروطه وبمجاله. والخطاب الذى كان يمكن أن يقف متكلماً إلى جواره وفى مجاله هو

خطاب مضاد يتناول ـ على نحو ما يوحى وصف فوكو ـ أمر الإدانة الملكى وينقضه ؛ فبدلاً من أن يصب الناس لعناتهم على الشخص الذى يساق إلى الإعدام، والذى قد «يلعن القضاة، والقوانين، والحكومة، والدين»، بدلاً من أن يدين نفسه ـ غالباً ما كانوا يصدرون «صيحات التشجيع» له. وفى بعض الأحيان قد ينتهى المشهد ـ وقد تحول على هذا النحو ـ إلى الشغب (ص ٦٠). فإذا استخدمنا أفكار بيشو مرة أخرى كان فى وسعنا أن نرى فى هذا النقض والخطاب المضاد بداية «تماهٍ مضاد» لممارسة القوة فى المشهد (١٩٧٥، ترجمة ١٩٨٢، ص ١٥٧ ـ ٨).

وإذ تمضى دراسة فوكو فى اتجاهها نحو التركيز على ما كان سائداً، فإنها تبين كيف أن الألفاظ التى تستخدم بعد الحدث يمكن كذلك أن تكون جزءاً من ممارسة عملية الإخضاع. وعلى سبيل المثال فحول مشهد الإعدام يمكن للمنشورات التى تمثل أدب الشارع نفسه، والتى تحكى «الكلمات الأخيرة للمحكوم عليه بالإعدام»، أن تجد معانيها فى ممارسة القوة ؛ فهى تهيئ الاعترافات المطلوبة و«حيثيات» العدالة (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ ب، ص ٦٦). ولكن الخطاب السائد فى المنشورات يمكن من جهة أخرى أن يُنقض، وأن ينقض إلى مدى أبعد ؛ ويمكن ـ حتى فى الوقت الذى يتم فيه تشجيع انتشارها [أى هذه المنشورات] بوصفها «توجيهاً إيديولوجياً» ـ ممارسة القراءة التواقة إلى هذه الاعترافات ذات الطابع الخيالى بالجرائم بحثاً عن «السوابق» الممثلة لها (ص ٦٨). وربما ظهر من خلال هذا العرض السريع أن الاستخدام الملتبس للكلمات فى المنشورات، مثل كلمات «سوء الحظ»، و«الكراهية المفرطة»، و«المشهور»، و«المؤسف» (والكلمة الأخيرة تستخدم فى حالة الموت)، جعل هذه النصوص أقرب إلى أن تكون أرضاً لمعركة بين الخطابات المتعارضة (ص ٦٨). ومع ذلك فإن عرض فوكو لا يصف شيئاً أكثر من هذا ؛ فهو لا يقدم إلينا أى مثال للخطاب الشعبى الذى يمكن له وقد تشكل ضد ساحة ما هو سائد ووراء نطاقها أن يُحدث ما يسميه بيشو «حالة اللاتماهى disidentification» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٨٢، ص ١٥٨ ـ ٩).

وبدلاً من هذا يشير ذلك العرض إلى نوع من الأدب البرجوازى بمعنى الكلمة، الذى صار يقلل لا من قيمة الاعتراف فحسب، بل مما فى الجريمة من بطولة شعبية كذلك. ذلك بأنه منذ نهاية القرن الثامن عشر أخذ أدب الجريمة فى التطور، حيث صار المجرم فيه، بدلاً من أن يظهر بوصفه من الشعب وللشعب ـ صار شخصاً من أصول برجوازية و«عدواً للفقراء» (فوكو ١٩٧٥، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ٤٦). وفى وسع المرء أن يقول إن هذا الأدب قد أدى إلى

اللاتماهى مع ما للمنشورات من جاذبية شعبية، ومع ذلك فإن تقويمه الجديد للجريمة ـ بوصفها «المزية المقصورة على أولئك العظماء حقاً» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٦٨ ـ ٩) ـ كان عنصراً فى خطاب جديد سائد، يرتبط ـ بوصفه سلاحاً فى الصراع الطبقى البرجوازى ضد الجماهير ـ بتقسيم العمال والمجرمين الذى أحدثه نظام السجن. وفى دراسة فوكو يتضح مرة أخرى كيف أن هناك عناصر مختلفة فى هذا الخطاب قد نُقضت عن طريق خطاب مضاد. فمن جهة، كان الفصل بين المجرمين والعمال متماهياً مع [اتجاه] صحف العمال ومقبولاً منها، وعلى سبيل المثال فى حملاتها ضد «رفاهية السجون» (ص ٢٨٦ ـ ٧). ومن جهة أخرى كانت صحف العمال كثيراً ما تنقض الخطاب السائد كلمة كلمة. وفى هذا الصدد يقتبس فوكو من صحيفة الإنسانى **L'Humanitaire**، الصادرة فى أغسطس ١٨٤١ قولها: «إن الرجل الذى يقتلك لم يكن حراً فى ألا يقتلك، وإنما المجتمع، أو ـ بمعنى أدق ـ التنظيم الاجتماعى الرديء هو المسئول» (ص ٢٨٧).

إن دراسات فوكو المتعلقة بالخطاب والإخضاع تستطيع أن تقول الكثير عما يحدثه الخطاب من آثار فى أشكال الإخضاع التى تسود وتسعى إلى تحقيق الانضباط والمراقبة، ولكنها تقول القليل عن الخطاب الذى يكون قادراً على إحداث اللاتماهى وتغيير المجال بدلاً من أن يكون مجرد خطاب مضاد. وهكذا تسقط هذه الدراسات من حسابها كثيراً من جوانب تأسيس الخطابات؛ ذلك التأسيس المضاد، الذى اتجهت إليه نظرية بيشو الأكثر استغراقاً فى المادية، وتقتصر حقاً على الشروع فى ملاحظة أن الكلمات يمكن أن تغير معانيها مع الأوضاع التى استخدمت فيها. إن ما تبرزه حقاً هذه الدراسات، وما تستطيع فى الواقع أن تعيننا على تعريته، هو قبول الخطاب السائد ونقضه. وهى فى عرضها للطرق التى تكرر فيها الخطاب أو تم نقضه، بوصفه أداة لأشكال الإخضاع السائدة، تستطيع أن تدعم المزاعم المتعلقة «بالتماثل» بين التماهى **identification** والتماهى المضاد **counter- identification** (انظر بيشو ١٩٧٥، ترجمة ١٩٨٢، ص ١٥٧). ويلوح أن هذه الدراسات توحى بأن تغيير ما كان سائداً قد تطلب ما هو أكثر ومازال يتطلب هذا؛ أعنى الخطاب والفعل الثورى (اللذين كانا ذات يوم برجوازيين ولكنهما لم يعودا كذلك).

وحتى الآن يكون قد تم نوع من الالتفات إلى الآثار المباشرة للخطابات فى ممارسات عملية الإخضاع، ولكن ليس إلى آثارها التى هى دونها فى المباشرة. وربما كانت هذه الآثار الأخيرة

مهمة إلى حد بعيد؛ فعلى وجه الخصوص كثيراً ما قد تمد الخطابات هذه الممارسات بنوع من الدعم. وعلى سبيل المثال فإن ما يسمى «علوم الإنسان»، التى تجمع - بوصفها ألواناً من المعرفة - بين لغة الخطاب وتقنيات العلم، قد دعمت ما يحدثه النظام من جعل الأفراد أسوياء. ومن هنا فإن عملية «الإشراف على حالة السواء» كانت منذ القرن التاسع عشر قد ألقيت نهائياً على عاتق الطب أو الطب النفسى الذى أسبغ عليها نوعاً من «الروح العلمى» (فوكو ١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٢٩٦). ويمكن أن يقال إن علم الجريمة، وعلم النفس، والمعارف الأخرى «المتعلقة بسيَر الأشخاص»، التى تُرضى نزوعنا الإنسانى، قد شاركت كذلك فى هذا المجال.

إن «علوم الإنسان» هذه (بالإضافة إلى معارف وخطابات «جادة» أخرى) تعيش وسط ما يمكن أن يسمى الإيديولوجيات النظرية. وإذا نحن التزمنا النهج المادى أمكننا أن نتناولها فى حرص وبناء على مرحلة سبقت باستخدام عبارة لوكور **Lecourt** البالغة الدقة، القائلة، «إن الإيديولوجيات العملية تضفى على الإيديولوجيات النظرية أشكالها وتعين حدودها» (١٩٧٢، ترجمة ١٩٧٥، ص ٢١١). فالصورة المختزلة لهذه العبارة يمكن أن تعيد إلى الأذهان الكثير مما سبقت مناقشته؛ وليس أدل على هذا مما ورد فى الفصل الثالث. إن الإيديولوجيات العملية (بوصفها إجراءات تقوم بعملية الإخضاع) متجذرة فى الصراعات الطبقية وغيرها من الصراعات ومتشكلة فيها؛ وإن هذه الصراعات لتسعى إلى تحديد ميادين المعرفة، والخطابات الجادة، إلخ.، من خلال الإيديولوجيات العملية، وهكذا فإن المعارف - بوصفها جزءاً من هذه العملية - تصل إلى كثير من مضامينها وأهدافها بالرجوع إلى الإيديولوجيات العملية.

وربما أفرط فوكو فى التبسيط فى إيحائه بأن «المعرفة تتحدد فى أشكالها وميادينها عن طريق الصراعات التى تتخللها» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٢٨). ومع ذلك فكثير من هذا قد تم تعيينه فى دراساته. إنه يتخذ من علم الجريمة مثالاً، ومثالاً متطرفاً، للخطاب الذى تَشَكل لكى يسوغ عملية الإخضاع التى تعتمد على النظام، أو - على الأصح - لكى يكون تسويغه تلك المجموعة الكاملة من الوسائل الإيديولوجية التى يسميها النظام دون تسويغ النظام الخاص بالسجن. وهو يوضح كيف أن علم الجريمة كان مطلوباً على وجه السرعة لتبرير نظام السجن، أى (للاعتذار الذى استخدم منذ القرن الثامن عشر، بأنه إذا كان هناك من

يفرض العقاب على شخص فليس هذا من أجل عقابه على ما ارتكب، بل من أجل تغيير شخصيته» (١٩٧٥أ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ٤٧). والواقع أن ذلك العلم كان مطلوباً على وجه السرعة، حتى أن المعرفة التى اشتمل عليها لم تتشكل فى إطار مترابط، ولم تحصل على هذا الإطار منذ ذلك الحين. إن ما يدعمه علم الجريمة هو التعهد بنظام للسجن وفى الوقت نفسه إخفاق هذا النظام؛ وذلك لأن القضاة يمكنهم أن يقرروا «بحق أن الأدوات المتاحة لهم»، متمثلة فى الاحتجاز والسجن «لا تغير من شخصية أحد». وقد كُرس خطاب هذا العلم «لتسويغ الإجراءات موضع النظر» (ص ٤٨). ومن خلال الإخفاق المستمر لنظام السجن، يمنح هذا النظام البرجوازية أداة لإخضاع الجماهير وتقسيمها. ويوحى إلينا شرح فوكو أن علم الجريمة قد نشأ لكى يمد هذا النظام بذريعة، وذلك لنسيان الإخفاق فى معرفة كان يمكن أن تقوم بمهمة التحكم فى النقد الخاص بالسجن. والبرجوازية ـ كما يقول فوكو ـ «ذكية وسيئة الظن بالناس» (ص ٤٧).

وليس علم الجريمة وحده هو الذى يدعم عمليات التنقيب فى النظام؛ فالطب النفسى وعلم النفس و«علوم الإنسان» تصنع هذا كذلك، كما أن لها آثارها فى مجالات أخرى من الممارسة الاجتماعية أيضاً. لكن هذا العرض القصير لعلم الجريمة يمكن أن يوحى فى براعة أن طريقة دراسة هذه العلوم (من أجل معرفة كيف أنها تمثل عائقاً للنقد الأساسى) تكون من خلال علاقتها بالإيديولوجيا العملية. وهذه المعارف، أو هذه الإيديولوجيات النظرية، هى ـ إذا نحن استخدمنا صياغة ألتوسير ـ «فى آخر الأمر (أجزاء) من الإيديولوجيات العملية فى الحقل النظرى» (١٩٧٣، مجموعة ١٩٧٦ب، ص ٣٧).

وإلى جانب قيام دراسة فوكو بتنبيهنا إلى ما لهذه المعارف من آثار، فإن لديها ما تقوله عن التقنيات التى تستخدمها هذه المعارف. ذلك بأن هذه المعارف تكتسب ـ فى عملية دعم النظام ـ كثيراً من تقنياتها من الحفريات المتعلقة بهذا النظام. ويوحى شرح فوكو على وجه الخصوص بمدى أهمية الاختبار والإشراف فى تكوين العلوم الإنسانية. لقد أثبتت تقنيات الاختبارات، سواء فى تحديد الاستعدادات الفردية أو فى دراسة المرضى، إلى جانب السجلات، و«الملفات»، والتسجيلات التى تنشرها الرقابة المستمرة ـ أثبتت أنها لا يمكن الاستغناء عنها هنا؛ فهذه التقنيات قد جعلت من السهل تشكيل «الفرد بوصفه موضوعاً قابلاً للوصف والتحليل» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ١٩٠). والحقيقة أن شرح فوكو فى كتابه النظام والعقاب

يعول كثيراً في الواقع على ذلك «القالب التقني» لهذه المعارف (ص ٢٢٦)، ويعول قليلاً للغاية على الآثار (التي صورها في دقة لتدل على علم الجريمة في مقاله «حديث السجن») التي عن طريقها يتم إدراج هذه المعارف آخر الأمر في عالم الصراعات.

وتصف لنا دراسات فوكو اللاحقة مرة أخرى نوعاً من الخطاب المضاد؛ فخطاب العلوم الإنسانية لم يقف مستقلاً دون منازع؛ حيث تمت على نطاق واسع معارضته أساساً من خلال صراع الطبقة العاملة، ومن خلال العلم الماركسي والفلسفة الماركسية. ولكن كانت هناك كذلك اعتراضات موضعية، منها اعتراض يرجع في تاريخه إلى نهاية القرن التاسع عشر، التقطه فوكو في دراساته للنشاط الجنسي. (وقد اختلفت هذه الدراسات في أساسها على أنحاء كثيرة، وكان اختلافها هذا يزداد يوماً بعد يوم؛ ولكن المثال الخاص بما حدث من انقلاب في القرن التاسع عشر يظل وثيق الصلة حقاً بالأمثلة الأسبق).

إن فوكو يتوقف في شرحه أولاً عند العلوم الإنسانية. وهو يلاحظ أن عمليات الاختبار والإشراف قد استخدمت في تشكيل الأفراد لكي تهيئ للناس هوية جنسية، وقد قامت هذه (الهويات مصاحبة للتفريق بين الأسوياء والمنحرفين. وكان للعلوم الإنسانية، ولعلم النفس والطب النفسي على وجه الخصوص، دور فعال يسميه فوكو «الغرس المنحرف»؛ وذلك بجعل الانحراف يتحول إلى طبيعة باطنية «ماثلة في كل مكان» لدى الفرد (١٩٧٦، ترجمة ١٩٧٩، ص ٤٣ - ٤). وهو يضرب مثلاً لذلك بالشذوذ الجنسي. فوفقاً للطرق التي تم بها تجميع هذا الصنف من الناس (بوصفه «صنفاً من المنظور النفسي والطبي النفسي والطبي البشري») في حوالي السبعينيات من القرن التاسع عشر، «أصبح اللوطي شخصية معلنة، وماضياً غير مشرف، وحكاية لحالة مرضية، وصورة للطفولة، بالإضافة إلى كونه يمثل نمطاً من الحياة، أو شكلاً من أشكال الحياة» ص ٤٣).

وما يوحي به فوكو هو أن التصنيف الخطابي للشذوذ الجنسي قد «مكن» جزئياً «من تشكيل خطاب (مضاد)» (ص ١٠١). وهذا الخطاب قلب الكلمات نفسها، وغالباً ما قلب الدعاوى نفسها، إلى صورة الاعتراض؛ وكان حاصل هذا أن «الشذوذ الجنسي أخذ يدافع عن نفسه، مطالباً بالاعتراف بشرعيته أو كونه طبيعياً» (ص ١٠١). وقد يبدو أن وصف فوكو الغامض بعض الشيء يدل على أن هذا الخطاب المضاد يتكون من مزيج من شيء أكثر من

مجرد النفى، وشىء أقل منه، على السواء. إنه تكرار ـ من جهة ـ يفضى إلى قبول الشذوذ الجنسى بوصفه خصوصية شخصية؛ وهو ـ من جهة أخرى ـ مواءمة تشمل تحويل هذه الخصوصية المفروضة إلى مزية. لقد كان خطاباً مضاداً فى الواقع، يقول: «حسنا، نحن على النحو الذى تقولونه عنا، بحكم الطبيعة، أو المرض، أو الانحراف، كيفما شئتم، حسنا؛ فإذا نحن كنا على هذا النحو الذى تقولونه عنا، فلنكن كما تقولون؛ وإذا أنتم شئتم أن تعرفوا من نكون فسنخبركم نحن أنفسنا بأفضل مما تستطيعون معرفته» (١٩٧٧، ترجمة ١٩٨٠ب، ص ٧).

ويمكن أن يعيننا هذا المثل الصغير على معرفة الملامح الأساسية للخطابات المضادة؛ فالمعتقد أنها نوع من التناسق لا يتمثل إلا فى المقاومة الواقعة ضمن الإيديولوجيات السائدة التى يمكن لتلك الخطابات معارضتها، وعلى صعيد هذه الإيديولوجيات. ولكن حيثما يكون التقسيم قد تم حقاً إنجازه وفرضه فى المستوى الإيديولوجى، فإن هذا قد يكون الشكل الوحيد للنزاع فى نطاق هذا المستوى الإيديولوجى خلال ما هو سائد. وقد لا تكون هناك مقاومة أخرى لخطاب الشذوذ الجنسى ولخصوصية الشذوذ الجنسى بوصفهما ناتجين عن تقسيم مفروض يفصل بين السوى والشاذ، وأيما تقدم على الطريق سيكون معناه البدء بمهمة تعرية تلك الخصوصية. وهذا ما تصنعه دراسة فوكو.

لكن هذا المثل نفسه قد استخدم فى المجلد الأول من كتاب *تاريخ النشاط الجنسى* بوصفه جزءاً من مشروع لفحص ما إذا كانت عملية النقض هى آلية كل أنواع المقاومة. وهذا المشروع يتجه بنا بعيداً عن أية قضايا مادية النزعة؛ فهو بمثابة تراجع (من فوكو). ولما كان هذا المشروع يطلعنا على جوانب كثيرة من نص فوكو، وكانت أسس كتاباته قد تغيرت، فإن المواجهة الأساسية المضادة للعلوم الإنسانية قد أسقطت من الحساب على وجه الإجمال؛ فلم يعد هناك معنى للإنشاء المتضاد للخطابات. وعلى سبيل المثال لم يعد يؤبه بالتعارض الأساسى بين خطابات العلوم الإنسانية وخطابات الماركسية، واللاتماهى الذى تحدثه الماركسية. وقد سبق أن ذكرنا بعض الفجوات المماثلة فى دراسات فوكو السابقة. على أن هذه الفجوات ليست جوانب إخفاق فى الدراسة الاختبارية (الامبيريقية)، ولكنها المسائل الغامضة فى كتابته وما فى هذه الكتابة من ميل نحو الذرائعية (البراجماتية).

عن السلطة والمقاومة
أو ما الخلل فى الذرائعية

يمكن للمرء أن يقول فى إيجاز إن الذرائعية هى كل ما يذهب فى بساطة إلى أن الممارسة لها الأولوية على النظرية. وإلى هذا تذهب النظرية المادية كذلك. ومع ذلك فهناك تعارض بينهما؛ ففى الوقت الذى تنطلق فيه الذرائعية من هذه الفكرة، تقدم الفلسفة المادية عليها التناقضات المادية والعلاقات الحقيقية، كالعلاقات الاقتصادية الأساسية بين أصحاب رأس المال والأُجراء؛ وهى أقرب إلى أن تكون علاقات غائبة فى الذرائعية.

ويرتبط كثير من كتابات فوكو بين ١٩٧١، ١٩٧٥ بعمل جماعة الإعلام عن السجون (انظر الفصل الأول). وهناك الكثير فى هذه النصوص، الذى يميل نحو الفلسفة المادية. وقد نظرت إليها على هذا الأساس فى مناقشاتى حيثما كان ذلك ممكناً. ولكن هناك كذلك الكثير الذى يشدنا إلى نوع من الذرائعية؛ وهو ما ينتهى على نحو متصاعد إلى الهيمنة على كتابات فوكو فى السبعينيات الأخيرة. وجدير بنا أن نلاحظ مباشرة أن هذه الكتابات لاتنفى الصراع حتى فى نزعتها الذرائعية؛ إنها تجعله ثانوياً، وتنظر إليه على أنه شكل من أشكال النزاع أو المنافسة. وعلى هذا الأساس تُطرح علينا فى بعض الأحيان وجهة نظر ذاتية حقاً، صادرة عن نوع ما من العمل الدرامى الذى يؤديه أفراد أو جماعات. إن وثائق محاكمة ريفيير، على نحو ما وردت فى كتاب أنا پيير ريفيير I, Pierre Riviere (١٩٧٣، ترجمة ١٩٧٨)، قد عدت «منازعة» أو - بالأحرى - «مجموعة من الصدامات المنفصلة» بين ريفيير نفسه، والقضاة والنيابة، والأطباء النفسيين (ص : ى). وفضلاً عن هذا فإن ما يقدم إلينا أحياناً على أنه صراعات هو طقوس تتم ضمن الممارسة العملية. وكتاب *النظام والعقاب* يشتمل على شىء من الوصف لممارسة عملية الإعدام العلنى بوصفها نزاعاً أخذ شكل الطقس، ينطوى فى صميمه على «صراع» بين «المجرم والسلطة» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ب، ص ٥٠). وعلاقات التضاد التى تتشكل فيها الممارسات بوصفها أسلحة فى الصراع هى ما لا يستطيع هذا المنظور أن يحيط به.

ويرجع كثير من المفارقات الملحوظة فى كتابات فوكو جزئياً إلى القدر الذى يشوبها من النزعتين المادية والذرائعية. وعلى سبيل المثال يوحى فوكو فى مقاله «حديث السجن» أن

دراساته قد وضعت «فى إطار أفق من التفكير تم تحديده ووصفه من قبل على يد ماركس» (١٩٧٥ أ، مجموعة ١٩٨٠ أ، ص ٥٣)؛ ولكنه فى مقاله «البدن / السلطة» يقول: أعتقد أنه من الواجب علىّ أن أفرق بين تفكيرى وبين المنظورات الماركسية والشبيهة بالماركسية» (١٩٧٥ب، مجموعة ١٩٨٠ أ، ص ٥٨). ولما كانت هذه الكتابات قد جمِّعت فى كتب تنتشر حاملة اسم فوكو، فإننا لا نستطيع أن نضع أيدينا على ميلها تجاه المادية دون أن نواجه كذلك الذرائعية التى تنحرف عن هذا الاتجاه على نحو متصاعد. وأود الآن أن أعرض لبعض آثار الانحراف، ثم لنظريته فى السلطة والمقاومة، التى يترك هذا الانحراف بصمته عليها بصفة أساسية.

وقد سبق ذكر بعض الفجوات فى دراسة فوكو للنظام، وهو فى شرحه يركز على تدريب البدن، فيخبرنا بالكثير عن كيفية استثارة جملة متنوعة من المهارات والاستعدادات التى يمكن أن تصنع من أى شخص فرداً عاملاً، مهيئاً للإنتاج الرأسمالى؛ كما يخبرنا كيف أن نظام السجن يستخدم لإقصاء عدد من أبناء الشعب لا يمكن الوصول بهم إلى حالة التكيف والطاعة؛ ولكنه لا يخبرنا بشىء عن إخضاع البرجوازية أو عن صراع الطبقة العاملة؛ فميله إلى الذرائعية كما يتبدى فى شرحه، ينتهى بها دون هذه الأشياء.

إن أى شخص يمكن أن يدخل فى النظام، ولكن لا ينتهى كل شخص فى بساطة إلى أن يصبح عاملاً أو يصبح ـ فى نظر القانون ـ مجرماً. ودراسة فوكو تنزع إلى إهمال هذا وتطرح الفكرة المضللة القائلة إن البرجوازية تقع خارج النظام نوعاً ما، وأنها غير خاضعة. ومع ذلك فإن النظام فى مجال التعليم ـ على سبيل المثال ـ ليس مقصوراً على مجرد قطاع واحد. فإذا نحن نظرنا فى الوضع فى بريطانيا رأينا أن النظام يسود فى المدارس الأهلية كما يسود فى المدارس الحكومية. ومع أن النظام سلاح برجوازى فإنه لا يفرض على الجماهير وحدها. وفيما تفصِّل دراسة فوكو فى تقنيات النظام فى ذاتها ومن خلال ذاتها، فإنها تخلق مشكلة هنا، وتجعل النظام يبدو أحادى الجانب على وجه الإطلاق؛ أى أن «جماعة من الناس تُخضع جماعة أخرى» (١٩٧٥، ترجمة ١٩٧٧ ب، ص ٢٢٣). وربما احتاج المرء ـ من أجل تصحيح هذا ـ إلى النظر فى كيفية ارتباط النظام ـ وهو يعمل عمله لدى كل شخص (فى المدارس مثلاً) ـ بالممارسات السائدة التى تفرض التقسيمات على امتداد الأوضاع الطبقية.

أما استبعاد صراع العمال أو الصراع الشعبى فيمثل مشكلة أكثر خطراً. إن النظام ـ على نحو ما يبين فوكو ـ أداة تمارس الطبقة المهيمنة من خلالها سلطتها؛ ومع ذلك فإن وصفه ينحو إلى الإيحاء بأن هذه السلطة تقوم بذاتها وبشروطها الخاصة. والواقع أن وصفه يخاطر بتحديد «المثالى» من النظام، الذى يصبح فيه التلميذ فى المدرسة، والجندى، والعامل، مدرَّبين تدريباً كاملاً، كما يصبحون أبداناً تطيع طاعة عمياء، شأنهم شأن أنواع الحيوان المستأنسة، أو ـ بالأحرى ـ شأن الإنسان الآلى. وفى هذا الحلم المزعج تكون السيادة لكل ما له وجود. وهذه المشكلة ـ مرة أخرى ـ هى نتيجة الميل الذرائعى لافتراض أن الممارسة يمكن أن تنشأ خارج نطاق التناقض والصراع. ومن حسن الحظ أن النظام ليس بهذه البساطة لدى البرجوازية؛ فالطبقة العاملة ـ بادئ ذى بدء ـ لا تطيع طاعة عمياء إلى هذا الحد.

وهكذا يتضح أن هناك مشكلات؛ ومع ذلك فإن دراسات فوكو فى السبعينيات المبكرة كانت أبعد عن أن تكون منافية للاتجاه المادى فيما توضحه خاصاً بخطابات الإخضاع وممارساته. وقد تم فى الأقسام السابقة تحديد المدى الذى تستطيع فيه هذه الدراسات أن تجسد المزاعم المادية. ولكن بدلاً من أن تجد المشكلات الحل، كان تفاقمها فى كتاباته المتأخرة، حيث وضعت هذه الكتابات على نحو متصاعد التوجيهات الأساسية الذرائعية لدراسة السلطة والمقاومة فيما يمكن أن يسمى المجال الإيديولوجى، وقد كانت نتائج هذا أن كان لكتاباته المتأخرة الأثر السياسى المدمر فى جعل التمرد غير وارد على التصور مطلقاً، كما أن هذه الكتابات تدير ظهرها لما تحرزه دراسة الخطاب من صور التقدم.

إن شروح فوكو للسلطة هى مزيج من التعريفات والتعليمات. والخطأ فى هذه الشروح منذ البداية هو افتراض أن كل الاختيارات بسيطة؛ فإذا كان هناك زعم خاطئ، فلابد أن يكون هناك زعم آخر صحيح. والزعم العام هو أن السلطة قمعية بصفة أساسية. أما فوكو فيستبدل بهذا الإيحاء بأن السلطة «أداة إنتاج» أساساً (١٩٧٧ب، مجموعة ١٩٨٠، ص١١٩)، وأنها تمارَس فى أشكال «الإشراف والمراقبة» على نطاق أكبر منه فى أشكال «الحظر والتحريم» (١٩٧٦، ترجمة ١٩٧٩، ص ٤١). وإذا نحن نظرنا فى السلطة كيف تمارَس عن طريق أداة إيديولوجية، لرأينا أن هذه العبارة معقولة على نحو ما؛ فالنظام ـ على نحو ما تبين دراساته ـ أداة ماكرة لإنتاج الأفراد ومراقبتهم. ولكن هذا المعنى الضمنى لا يسعف كثيراً على النظر إلى السلطة كيف تعمل فى إطار قوى القمع المادى المهلكة، كالجيش والشرطة على وجه الخصوص. وربما كانت السلطة قمعية ومنتجة على السواء.

وفوق هذا فإنه من المألوف زعم أن السلطة شىء فعلى، أى كينونة واضحة المعالم، ولكن بدلاً من ذلك يقرر فوكو أن «السلطة تعنى العلاقات» (١٩٧٧هـ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص١٩٨). ومع ذلك فمن الممكن أن يكون هناك أكثر من نوع واحد من العلاقات. وشرحه لما يتضمنه هذا لا يهتم إلا بالعلاقة القائمة داخل السلطة (كيف تسيطر السلطة عن طريق الإخضاع)، التى يسميها «العلاقة» مع «الشخص الذى تمارَس عليه السلطة» (١٩٨٢، ص٢٢٠). ويُخْطئ هذا الشرح أية علاقة بين السلطة والمقاومة، ويخطئ - على وجه الخصوص - أية علاقة تضاد تتشكل فيها أدوات السلطة ضد المقاومة، على نحو ما يحدث لهذه الأدوات إذا كانت السلطة والمقاومة كلتاهما متجذرتين - آخر الأمر - فى الصراع الطبقى الناشئ عن الوضع الاقتصادى.

ولما كان شرحه لا ينظر إلا إلى «داخل» السلطة، فإنه يقترن بتوجيهه الأساسى البالغ الضرر. وهذا يتطلب منا أن نفترض أن «السلطة كائنة (من قبل هناك على الدوام)» بشروطها الخاصة (١٩٧٧جـ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ١٤١). وبعبارة أخرى فإن ما يسود هو كل ماكان له وجود؛ أى أن السلطة لا تتشكل إلا من «داخل». وبالنسبة إلى الدراسات الحالية يتطلب هذا النهج «تحليلاً غير اقتصادى للسلطة» (١٩٧٧أ، مجموعة ١٩٨٠، ص ٨٩). ومن هنا فإن المشكلة الدقيقة فى هذه المزاعم هى أنها تترك المقاومة فى طريق مسدود.

وربما بالغ بولانتزاس **Poulantzas** فى المشكلة بقوله: «إذا كانت السلطة هناك على الدوام، وإذا كان كل موقف للسلطة متأصلاً فى ذاته، فلماذا تكون هناك مقاومة على الإطلاق؟ ومن أين ستأتى المقاومة، بل كيف يتسنى لها أن توجد؟» (١٩٧٨، ترجمة ١٩٧٨، ص ١٤٩). ذلك بأن دعوى فوكو لا تستبعد كل أنواع المقاومة، بل تسمح بالنقائض؛ بالخطابات النقيضة وبأشكال التماهى المضاد، التى بينت دراساته السابقة حدودها. وهذه النواحى ربما استطاعت أن تتشكل بوصفها آثاراً ثانوية لموقف السلطة نفسه؛ ففوكو يوعز إلينا بأنها يمكن أن تحدث فى «الحقل الاستراتيجى» للسلطة (١٩٧٦، ترجمة ١٩٧٩، ص ٩٦). ومع ذلك، ففى الوقت الذى قد يكون من الممكن فيه إحداث جلبة بهذا الزعم عند دراسة النقائض التى تتساوق مع السلطة، والتى تحصل على مكاسب صغيرة من خلال كونها (إذا نحن استخدمنا ألفاظه) «قرين السلطة» (١٩٧٧جـ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص١٤٢)، فإنه من المحال المضى إلى أبعد من هذا؛ فلن يسمح لنا هذا الزعم بدراسة الثورات

والتغيرات الجذرية. وتاريخ النشاط الجنسى عند فوكو لا يقدم إلا القليل لتوثيق أى شكل من أشكال المقاومة، كما أنه لا يستطيع أن يحلل هذه الأشكال، وإن كان يسلم بوقوع اضطرابات جذرية. ومن وجهة النظر التى ترى المقاومة كلها على أنها نتيجة للسلطة لاغير، يبدو أن تلك الصراعات الطبقية الثورية، التى أطيح فيها بعلاقات السلطة القائمة، تظهر وتختفى كالسحر.

وفيما قد يبدو خطوة نحو تمحيص تلك المشكلات، يقترح فوكو توجيهاً آخر، يتمثل فى البدء من الشبكة المحلية للقوى العاملة فى أى منطقة. وخطوته هذه تفترض أننا نعيش فى مجتمع حرب تعددى: «من يحارب ضد من؟ إننا جميعاً يحارب بعضنا بعضاً» (١٩٧٧هـ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ٢٠٨). وما يقترحه فوكو هو أن أى دراسة ينبغى أن تقوم بتحليل «صاعد»؛ أى ينبغى أن تفحص أولاً «أشد علاقات السلطة القائمة مساساً وأشدها محلية» فى منطقة بعينها، كما ينبغى أن تصعد من هذه العلاقات إلى ما يسميه فوكو «الاستراتيجيات الكبرى» للصراع الطبقى (١٩٧٦، ترجمة ١٩٧٩، ص ٩٧؛ و١٩٧٧أ، ١٩٧٧هـ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ٩٩، ٢٠٣). ولكن زعمه هذا يفترض مرة أخرى أن كل الاختيارات بسيطة؛ كأن نقوم بتحليل «صاعد» بدلاً من أن يكون «هابطاً»؛ أن نبدأ من «المحلى» بدلاً من أن نبدأ من «العالمى». ولاشك فى أن ذلك النوع من التحليل، الذى يراه فوكو هابطاً وعالمياً، سيعد البرجوازية بمثابة شخص تعبر وسائل الرقابة والتنظيم عن وعيه الجمعى واهتماماته الأساسية، وبعبارة أخرى قد يحاول هذا التحليل بأسلوب مثالى أن يكتشف ما يمكن أن «يستنبط من الظاهرة العامة المتمثلة فى هيمنة الطبقة البرجوازية» (١٩٧٧أ، مجموعة ١٩٨٠أ، ص ١٠٠). ومع ذلك فإن تأكيده لهذا الاختيار بين «المحلى» و«العالمى» غير مسعف؛ وذلك لأن هذا الاختيار زائف أساساً من حيث إن كلا المنهجين اللذين يذكرهما يمكنه أن يمنح السلطة الأسبقية. وإذا كان هذا التحليل يفترض أن السلطة قائمة هناك على الدوام فإن أى قدر من الاهتمام بالأساليب المحلية لن يعين الأساس الذى تقوم عليه تلك الصراعات الطبقية الثورية، التى تحدث التغييرات الجذرية. وقصر الدراسة على المحلى لايستطيع إلا أن يرجئ هذا المأزق.

وفى المجلد التمهيدى *لتاريخ النشاط الجنسى*، لفوكو، نجد نوعاً من الاستخدام لوجهة نظر محلية، يرجئ حقاً الحاجة إلى مواجهة التغير التاريخى والصراع الطبقى. ولكن الإعلان

النهائى بأن «النشاط الجنسى برجوازى فى أصله وفى تاريخه» (١٩٧٦، ترجمة ١٩٧٩، ص ١٢٧) يلحق مع ذلك بقوة التناقض التى تصيب توجيهات فوكو المقترحة فى أساسها. «فالنشاط الجنسى» فى مفهومه الذى يستخدمه فوكو هنا، يشمل جملة مركَّبة من الاهتمامات العملية والخطابية المتعلقة بالحيوية والصحة الجسمانية، وبالرغبات الخفية التى تعد «حقيقة» الذات، وبتحسين النسل، وبالسلالة. وقد برزت هذه الاهتمامات ـ وفقاً للصورة السريعة التى قدمها فوكو ـ أول ما برزت بوصفها أداة الصراع الطبقى البرجوازى، وذلك عندما «جعلت البرجوازية عند نهاية القرن الثامن عشر كيانها الخاص ونشاطها الجنسى الأثير فى مقابل دم النبلاء الباسل» (ص ١٢٧ ـ ٨). وفيما بعد، عندما تحول ميدان الصراع، تغيرت معه هذه الاهتمامات؛ فقد حاولت «البرجوازية أن تعيد تحديد الطابع الخاص لنشاطها الجنسى فى مقابل الطبقة العاملة» (ص ١٢٨).

وهذه الدعوى تكفى ـ وإن تكن مزعزعة بعض الشىء ـ لأن تكون مثالاً، ذلك لأنها ـ حتى مع ملاحظة إمكانية التغير التاريخى ـ كان ينبغى لها أن تفيد من مسألتين حاسمتين توضحان حدود توجيهات فوكو الذرائعية، المسألة الأولى أن الصراع الثورى يتكون مما هو أكثر من نقض الممارسات والخطابات القائمة. أما المسألة الثانية فهى أن الممارسات والخطابات تتشكل ـ سواء بوصفها أداة للصراع الثورى أو أداة لممارسة السلطة ـ عن طريق ما هى مطالبة بالعمل معه والعمل ضده. وفى ظنى أنه لابد من وقفة عند هاتين المسألتين؛ وقفة مادية، يمكن فيها البدء فى إدراك كيف أن علاقات التضاد فى الصراع الطبقى هى (فى أى مستوى) محرك التاريخ.

لقد كان ينبغى لفوكو أن يغير حقل عمله؛ فوجهة النظر الذرائعية، التى تجعل للممارسة العملية الأولوية وتجعل للصراع مكاناً ثانوياً، لا تستطيع أن تتحاشى أن تجعل الأسبقية للسلطة، وأن تعين للمقاومة مكانها فحسب بوصفها الأثر المضاد فى شبكات السلطة. ومن هنا فإن وجهة النظر هذه تجعل الوجود التاريخى للتغيرات الجذرية خارج دائرة التصور. وفى نطاق هذا الوضع يفتقد اختيار المواقف «المحلية» أو «العالمية» بوصفه نقطة انطلاق ـ يفتقد تعارضات الصراع الطبقى، إلى أن يصير من الضرورى ـ آخر الأمر ـ جلب هذه التعارضات من حقل آخر. ويبين لنا العمل الذى قام به ألتوسير وبيشو عن الإيديولوجيا والخطاب، مبتدئين من الصراع الطبقى ـ يبين كيف أن الفعل والتغيير الجذريين يمكن إدراكهما حتى فى المجال

الإيديولوجى. ولأنهما بدآ من الصراع الطبقى فقد استطاع عملهما أن يعلن أنه لا قيامة لممارسة عملية فى ذاتها أو لخطاب فى ذاته؛ وفى كل الأحوال يتشكل الخطاب بصفة أساسية عن طريق ما يقف هذا الخطاب معارضاً له وما يكون سابقاً لهذا الخطاب؛ وبهذا لايستطيع قط أن يملى فى بساطة شروطه الخاصة، كما أنه لا يتقيد كذلك فى بساطة بشروط وضعت سابقة عليه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الخاتمة

قد لا يكون المكان هنا ملائماً للقيام بمناقشة تفصيلية لكتاب تاريخ النشاط الجنسى، لكن مشروع فوكو قد خضع لمراجعة مثيرة خلال السنوات الثمانى التى تفصل بين ظهور المجلد التمهيدى الموجز ونشر مجلدين آخرين فى عام ١٩٨٤ يمثلان دراسة مفرطة فى التدقيق، يحمل الأول عنوان *استخدام الملذات* **L'usage des plaisirs** ويحمل الثانى عنوان *قلق الذات* **Le souci de soi**. إن هذا المشروع يعود «ليركز... على البحث فى سلسلة نسب الرجل الشهوانى» (١٩٨٤ أ، ص ١٨). وهذا التغير يستدعى شيئاً من الملاحظة.

والبحث فى سلسلة النسب عند فوكو يقتفى من خلال نصوص الزمن القديم أثر الأشكال المتطورة التى طلب فيها إلى الأفراد «أن يتعرفوا أنفسهم بوصفهم ذوات خاضعة» للنشاط الجنسى والسلوك الأخلاقى على السواء (ص ١٠). وربما بدا تغيير الحقبة الزمنية هذا مثيراً للدهشة للوهلة الأولى؛ أعنى ارتداد فوكو من الاهتمامات الحالية عبر العصور المسيحية إلى زمن الإغريق والرومان القديم. وبهذه الوسيلة تمكن فوكو ـ فيما يعتقد ـ من أن يطرح سؤالاً غاية فى البساطة والعمومية، ألا وهو؛ لماذا صار السلوك الجنسى، والنشاط الجنسى، والمتعة الجنسية، موضوعاً للاهتمام الأخلاقى؟

ولكى يفحص فوكو النصوص القديمة الخاصة بالفلسفة والطب وتأويل الأحلام فإنه يعود مرة أخرى إلى نظريته فى «الممارسات الخطابية» التى عرضها أول مرة فى كتابه حفريات المعرفة. وهذه النظرية التى كانت منذ اللحظة الأولى شديدة التجريد، يستخدمها فوكو هنا بطرق لم تخطر على ذهنه فى كتاب الحفريات لكى يصور عملية تشكيل الوعى الذاتى، والذاتية، والتجربة. ودراسته التى تشغل مجلدين هى إلى حد بعيد محاولة لمراقبة البنية الداخلية لخطاب هو خطاب الأخلاقية الجنسية فى الزمن القديم، فى جعلها بعض المناطق إشكالياً، وعلى وجه الخصوص العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، وحب الأولاد، وفى تشكيلها لذات تتمثل فى الرجل الشهوانى، ولموضوع يتمثل فى تجربة النشاط الجنسى. وربما كان السبب المؤدى إلى الإعتام المزعج فى دراسة فوكو هو ـ على وجه التحديد ـ محاولته هذه

لتناول بنية خطاب فى ذاته وفى تشكيله لوجهة نظر مفردة. إن تربية المرء لنفسه أخلاقياً لا تخص ـ فيما يبدو ـ إلا بعض الأشخاص (وفوكو لا يعّينهم على وجه الدقة) من بين أولئك الذين ولدوا أحراراً وليسوا عبيداً، ومن بين الرجال دون النساء. لقد كان هذا «شرحاً تفصيلياً للسلوك الذكورى من وجهة نظر الرجال، وإضفاء للشكل على سلوكهم» (ص ٢٩)، كما أن هذا «لم يثر الاهتمام إلا لدى طوائف اجتماعية محدودة العدد إلى حد بعيد، كانوا هم حاملى الثقافة» (١٩٨٤ب، ص ٥٩). وإلى هذا الخطاب وهذه الوجهة من النظر صرف فوكو اهتمامه.

ومن الغريب ألا تثير دعاوى فوكو أى اعتراض. وهو يذهب ـ دون أن يلح على استمرارية منتظمة فى الأخلاقيات الجنسية من الزمن القديم إلى العصور المسيحية ـ إلى أن هناك تطوراً قد حدث تدريجياً. ومع أنه يلاحظ ـ بادئ ذى بدء ـ أن الزمن القديم لم يعرف تلك الحدود الصارمة، وأنه فى الواقع قد رفع على نحو ما من شأن العلاقات الجنسية المثلية، فى الوقت الذى ربطت فيه المسيحية النشاط الجنسى الشرعى بالزواج، واستنكرت العلاقات الجنسية الشاذة، فإنه يتخلص مع ذلك فى سهولة من أى وهم بوجود نشاط جنسى فى الزمن القديم طليق من كل قيد. وقد يبدو أن موضوعات الاعتدال والتزمت المتزايد لم تكن أقل انتماءً إلى الزمن القديم منها إلى العصور المسيحية. ومع ذلك لم يكن لهذه الموضوعات دائماً المكان نفسه والقيمة نفسها؛ ففى الزمن القديم لم يتحول التزمت والاعتدال إلى نظام أخلاقى شامل يتبعه الجميع، بل جلبا ـ بدلاً من ذلك ـ شعوراً أخلاقياً إضافياً ومترفعاً.

ويبدو أنه حدث كذلك فيما بين الحضارة الإغريقية إلى القرن الرابع قبل الميلاد، والنصوص الإغريقية واللاتينية التى ترجع إلى القرنين الأولين بعد الميلاد ـ حدث اختلاف فى موضع الاهتمام غير من شكل موضوع الشهوة تغييراً دقيقاً. ويفرد فوكو هذا التطور فى الفكر السائد. فى البداية زكّى الإغريق فى الأزمنة الأقدم بعض أنواع الاعتدال بوصفها أفضل شكل من أشكال السلوك وأكملها. ويبدو أن تقييد حق مباشرة المتع قد فهم بوصفه علامة على تفوق الإنسان على نفسه؛ وهو تفوق يتمثل فى الوقوف إلى جانب السلطة ويتلاءم معها؛ تلك السلطة التى يمارسها الإنسان على غيره من أهل بيته ومن أهل المدينة. ويقتفى فوكو فى أخلاقيات الأزمنة القديمة المتأخرة خلال موضوعات أربعة ـ هى «إساءة الظن بالمتع؛ والإصرار على ما لإساءة استخدام هذه المتع من آثار على الجسم والروح؛ وإضفاء القيمة على الزواج وعلى الالتزامات الزوجية؛ والنفور مما يعزى إلى حب الأولاد من المعانى الروحية»

(ص٥٣) ـ يقتفى أثر تزايد فى التزمت وتطور لقيمته. ويبدو أن التزمت ارتبط على نحو متزايد ـ فى الوقت الذى كان ما يزال ينسب فيه إلى الذات ـ بأسلوب كامل للحياة يتركز فى الاهتمام بالذات والعناية بها : «إن أسلوب الذات المتفردة قد صار الآن لا يلح كثيراً على التجاوزات التى يمكن أن يتورط المرء فيها، والتى ينبغى للمرء أن يتحكم فيها لكى يمارس هيمنته على الآخرين؛ كما أن هذا الأسلوب يؤكد على نحو متصاعد قابلية الفرد للإصابة بالأمراض المختلفة التى يمكن أن تنتج عن العمليات الجنسية» (ص ٢٧٢). لقد طرأ تعديل إذن فى مجال طرح المسائل؛ فالمبادئ الأخلاقية المحيطة بموضوع الشهوة قد اعتمدت فى الأزمنة القديمة المتأخرة بصورة متزايدة على السلوك الملائم لأسلوب فى الحياة؛ لصحة الجسم واحترام الذات.

وواضح أننا هنا ننطلق بعيداً عن دراسات فوكو السابقة، التى قامت ـ مهما يكن من غموض موقفها ـ بمعارضة الأفكار السائدة. إن هذه المجلدات تبدو فى المقارنة متراجعة ومسطحة. ويبدو لى أن فوكو يجد ما يبدو أنه يريد أن يجده، ألا وهو طريقة تحليل للذاتية، أو للوعى الذاتى، على نحو ما شكّله الخطاب. ولكن منهجه يفصل الخطاب عن التاريخ، ويضفى المثالية على الخطاب وآثاره على السواء، حتى إنه ليبعدهما معاً، لا عن الصراع الطبقى فى الزمن القديم فحسب، بل عن اختلافات النوع gender كذلك، وغيرها من وجوه الاختلاف التى نشأت خلال الممارسات الإيديولوجية. والواقع أن فوكو يمدنا ـ من خلال اقتصاره على وجهة النظر الحرة والمتحكمة، الخاصة بالهيمنة الذكورية فى الزمن القديم ـ بتحليل يتناول الفكرة العامة عن الذات فى قيمتها الاسمية الظاهرة. ويظهر «الشخص» من خلال سلسلة نسبه بكل وضوح بوصفه فرداً يتميز بالإيجابية فى علاقته بالآخرين الذين هم موضوعات شهوته السلبيون الخاضعون.

ولئن كان بعدنا الزمنى، والعدد المحدود نسبياً من النصوص المتبقية، يحدثان بعض المشكلات، مازال هناك الموضوع السياسى. إن فوكو يستطيع ـ بفصله للخطاب ـ أن يتناول فى أمانة الوعى بالنفس وبالذاتية فى نطاق الفكر؛ ولا يستطيع أن يصنع أكثر من هذا. إنه لم يترك وراءه أساساً يمكن منه إلقاء نظرة نقدية فاحصة على الفكر الذى يدرسه، أو على الخطابات الحديثة التى تؤثر ـ بوصفها جزءاً من إيديولوجيا الطبقة الحاكمة ـ الفردية واحترام الذات.

والشىء الذى يُفتقد هنا، وتفتقد معه عملية التاريخ الحقيقية، هو ما ينتج من آثار عن تلك العملية فى تشكيل الوعى. إن وعى العبيد، والنساء، والرجال، المدرج فى أشكال من التفكير ليست هى تلك الأشكال الخاصة بالهيمنة الذكورية لاغير، الموزعة بين التماهيات واللاتماهيات ـ هذا الوعى قد أهمل كلية لصالح هذه الفكرة الخاصة بالذاتية الذكورية؛ وليس كل شىء قابلاً لأن يعاد استخدامه. وقد لا يكون هناك مهرب من أن تكون فكرة الذاتية فكرة مثالية النزعة.

وفى الختام أود أن أعرض مرة أخرى لما يبدو أنه المصطلح المفتاح، أى «اللاتماهى»، الذى لم تستطع دراسات فوكو أن تفرد له مكاناً، وأن أنتقل منه إلى الإشارة إلى بعض الموضوعات التى تتطلب مزيداً من البحث. لقد استخدمت هذا المصطلح لكى أصف شيئاً يجعل تشكيل الوعى لا هو بالمتبلد ولا هو بالموحد دون تردد. ويظهر ما هو متضمن هنا بوصفه نتيجة للتناقضات القائمة فى الوعى، التى تمتد عبر مجال الإيديولوجيا والخطاب، حتى إن اللاتماهى ـ بالنسبة إلى الجماهير التى صارت خاضعة لأشكال الحكم الرأسمالى ـ يحدث من خلال التأثير فى الأشكال السائدة للإخضاع الإيديولوجى والعمل ضدها. وهذه مسألة تتعلق ـ على مستوى الفكر ـ بتحول المعانى والهويات المفروضة على الدوام وليس بتكرارها. ويبدو أن الأمر المثير للنزاع لا هو نوع من الانتصار «الخارجى» لفكر مستقل، ولا هو نوع من الانقلاب «الداخلى»؛ إنه أقرب إلى أن يكون تبنياً لأوضاع مضادة لها قوة النقيض لما هو سائد. وقد رأيت أن النظرية الماركسية تقدم إلينا على وجه التحديد هذه النظرية وهذه الممارسة الثوريتين الخاصتين باللاتماهى. ولكن ليس معنى هذا بطبيعة الحال أن هذه النظرية تقوم بوصفها «سلة أدوات اللاتماهى **disidentification- kit**» التى تهيئ النجاة ببساطة. ذلك بأن تعلق الآمال بسلة ينطوى على الوهم بعض الشىء. والأصح أن اللاتماهى قد يبدو ممكناً فى زمننا بوصفه الحصاد المستمر غير المكتمل لعملية مزدوجة فى تشكيل الوعى، تتمثل فى النظرية الماركسية بوصفها نظرية ثورية؛ وفى المقاومة والصراع الطبقى الثورى فى مجال الإيديولوجيا والسياسة. وهذا من شأنه أن يثير عدة مسائل.

أولاً، إذا لم يكن لهذه النظرية في أشكالها العلمية والسياسية والإيديولوجية الوضع الخاص بنوع ما من الحقيقة المستقلة والمثالية، فهل معنى هذا أنها لا يمكن تطويرها خارج نطاق نوع من التناقض، مع ما ينتج عن هذا من المخاطر؟ هل ينبغى إذن فهم اللاتماهى بوصفه ناتج

عملية تكون فيها النظرية الثورية القائمة عرضة دائماً لشيء من المخاطرة عند القيام بالعمل على طريق تحويل المجتمع الذى نعيش فيه؟ ويضاف إلى هذا سؤال آخر هو: هل اللاتماهى على وجه الإجمال أثر ناتج، أم أنه - بذلك - قوة أيضاً - إذا جاز القول - تحرر الجماهير من ارتباطها بالدولة de- States the masses، وتسهم - من ثم - بطريقتها الخاصة فى السعى نحو الاستحواذ على السلطة اللازمة لأى تحول فى المجتمع؟

وإننى إذ أثير هذه المسائل فإننى أدرك خطر الاتجاه الإصلاحى الذى لا يمكن التهوين من شأنه. إن تعقب الصراع الإيديولوجى لدى الطبقة الحاكمة فى نطاق منظمات الحركة العمالية وبرامجها عندما يحدث فإنه يمثل النزعة الإصلاحية. ويمكننا أن نقول مع ألتوسير إنها ما «يخدم الاهتمامات السياسية لدى البرجوازية، حتى فى داخل الحركة العمالية» (١٩٧٣، مجموعة ١٩٧٦ب، ص ٦٤).

إن عمليات المقاومة «التلقائية» وأشكال التماهى المضاد، والخطابات المضادة، الواقعة بين التواطؤ والاعتراض، قد تبدو حقاً ملتبسة بقدر ما يكون أى نوع من أنواع الاتجاه الإصلاحى ملتبساً. لكن الاتجاه الإصلاحى فى الخطاب وفى الخطاب المضاد ليس متماثلاً. وقد يكون ملحاً بعض الشيء إيضاح التمايز السياسى بينهما من خلال التحليل الواقعى الملموس.

وفى هذا الصدد يلزم مزيد من الدراسة للاتجاه الإصلاحى فى الخطاب، مع توفير التحليل الواقعى الملموس مرة أخرى؛ وفى هذه الحالة قد تبدو التوجهات التى بينها بيشو فى بحثه مهمة. ومن المهم - إضافة إلى ما سبقت مناقشته فى الفصل الثالث - أن نتائج التجربة العملية فى المركز الدولى للبحث العلمى CNRS تجاوز فروضها الأولية. ويوضح لنا شرح بيشو كيف أن التجربة تُبرز - من خلال تقسيم نص تقرير مانزهولت Mansholt report - ما فى النص من تناقضات بين خطاب اليمين وخطاب اليسار، وتُظهر - من ثم - بعض الالتباس فى البرامج الإصلاحية. لكن النتائج أوضحت ما هو أكثر من هذا، على نحو ما يؤكد بيشو من أن خطاب اليمين يهيمن - عن طريق ما فى النص من نواحى الالتباس - على خطاب اليسار ويسكته جزئياً فيما يتعلق ببعض المسائل الحاسمة، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بسلطة الدولة، حتى إن الخطاب اليسارى - فى مناداته بإحداث تغييرات اقتصادية جذرية - يخفق فى أن يعيّن «الوسائط السياسية الضرورية لإحداث التحويلات المقترحة». وهنا يحدث تقرير مانزهولت

وهماً مزدوجاً، يتمثل فى أن هذه التغييرات يمكن إنجازها إما عن طريق حكومة برجوازية أو دون مساس لمسألة سلطة الدولة. ودخول خطاب اليمين هذا فى خطاب اليسار «للحد منه، ولتشويه شكله ومحتواه» هو ـ فيما يذهب إليه بيشو ترتيباً على ذلك ـ «أخص علامة من علامات الاتجاه الإصلاحى فى مجال الصراع السياسى والإيديولوجى» (١٩٧٨، ٢٦٠).

الهوامش

المقدمة :

١ ـ انظر Davies 1978, coll. 1981 و Doyle 1982 و Eagleton 1983 and 1984 .

الفصل الأول : نهاية الستينيات

١ ـ للوقوف على المناقشات الخاصة بأحداث مايو يرجع إلى هارفى Harvey 1978، وجونسون Johnson 1972، وسيل وماكونفيل Seale and McConville 1968، وسنجر Singer 1970 .

الفصل الثانى : من الإيديولوجيا إلى الخطاب : الموقف الألتوسيرى

١ ـ يمكن الوقوف على هذا الاتجاه حتى فى بعض فقرات من كلاسيكيات الماركسية . ومع ذلك فهو ينتمى ـ كما يشير ماشيرى فى مقاله «مشكلات الانعكاس» ـ إلى الفلسفة التقليدية وليس اتجاهاً مادياً (١٩٧٧ ، ص ٤٦) .

٢ ـ للنظر التفصيلى فى مرسوم ١٩٤٤ التعليمى يراجع كتاب :

Unpopular Education (Centre for Contemporary Cultural Studies) 1981, pp 57 - 64.

٣ ـ وعلى سبيل المثال يقرأ بول هيرست Paul Hirst المقالة بالطريقة التى تجعله يفترض أن أ د أ يجب أن تؤدى وظيفتها نيابة عن رأس المال ، جاعلاً التغير غير قابل للتصور . وقراءته هذه تشتمل على جملة من الأخطاء تتصل بالموضوع ؛ فهو إذ يتجاهل الوجود المتعارض للإيديولوجيات ، يمضى فيفترض أن الإيديولوجيا بصفة عامة تتحقق فى أ د أ على نحو يجعلها تعيد بصورة آلية إنتاج العلاقات الرأسمالية (١٩٧٦ب ، مجموعة ١٩٧٩ ، ص ٤٢ ـ ٦) . ولو كان هذا صحيحاً لكان الصراع الإيديولوجى محالاً . ومع ذلك فإن دعوى ألتوسير تدحض فى وضوح هذا التشاؤم ؛ لأن «أ د أ» لا هى تحقيق للإيديولوجيا فى عمومها ، ولا هى مجرد التحقق الخالى من الصراع لإيديولوجيا الطبقة الحاكمة» (١٩٧٠ ، مجموعة ١٩٧١ ، ص ١٧٢) .

٤ ـ وفى هذه الناحية ترتبط فلسفته بالتحليل النفسى وبالألسنية اللذين خطوا بعض الخطوات فى هذا القرن لتقويض ما فرضت النزعة الإنسانية معرفته على كل الناس. وهناك شرح لهذه الروابط أوردته بلزى (١٩٨٠، ص ٥٦ ـ ٦٧).

٥ ـ قام هيرست (١٩٧٦ ب، مجموعة ١٩٧٩، ص ٥٧ ـ ٦٨) وأدلام Adlam وآخرون (١٩٧٧، ص ٥ ـ ٥٦) بهذه المحاولات لكى يتحولوا بفلسفة ألتوسير إلى نظرية فى الذاتية، بل إن بيشو كذلك (١٩٧٥، الترجمة ١٩٨٢) قد قام بشىء من المراجعة فى هذا الاتجاه وإن كانت مراجعة حريصة.

٦ ـ يمكن الوقوف على ملخصات وأمثلة تم جزئياً تناولها تناولاً نقدياً عند إيستهوب (١٩٨٣، ص ١٢٢ ـ ١٢٩) وبلزى (١٩٨٠، ص ٦٧ ـ ١٠٢).

الفصل الثالث : التعارضات ذات المغزى : موقف بيشو من الخطاب

١ ـ وإذ فصل بيشو «اللغة» عن «الفكر» فإنه يسعى إلى تعيين بعض الآليات العامة للتفكير الخطابى، التى يسميها «ما قبل مرحلة التشييد» و«العملية المساندة». وهو يطرح هذين الأمرين كذلك بوصفهما معادلين فى الخطاب لآلية الاستجواب الإيديولوجى. والأول منهما قد يكفل وضوح المعانى فى عالم الأشياء، والثانى قد يؤسس الذات فى علاقتها بالمعنى (١٩٧٥، ترجمة ١٩٨٢، ص ١١٥ ـ ٢١). ولكن هذا المشروع ينحدر مرة أخرى تدريجاً إلى ما يمكن أن يسمى ـ وإن كانت تسمية فظة ـ علم ما لا وجود له؛ وهو لهذا غير مفيد إلى الحد الذى يجعل دعاوى بيشو الخاصة بسياسة المعنى غير مفيدة. إنه مشروع يحتاج إلى التدبر مرة أخرى.

٢ ـ لقد استخدمت الطبعة الآتية : Burke (1793).

الفصل الرابع : الخطاب ونقد المعرفة (الإبستمولوجيا)

١ ـ تشير صيغة «هندس وهيرست» هنا وفيما بعد إلى الكتابات التى نشرت تحت اسم أىٍّ منهما أو كليهما، أو تحت اسميهما مضافاً إليهما كتلر Cutler وحسين Hussain.

٢ ـ يلمح إيستهوب إلى أن هندس وهيرست يقدمان هذه المزاعم النسبية والإنسانية (١٩٨٣، ص ١٣٠)؛ والواقع أنهما يتجنبانها إلى حد بعيد.

٣ ـ وقع سكلن Skillen على مشكلة مماثلة (١٩٧٨، ص ٤). ومما يجدر إضافته أنه على الرغم مما قرره هندس وهيرست من أن الأشياء «لابد من الإشارة إليها فى أشكال الخطاب،

النظرية والسياسية.. إلخ، ومن خلال هذه الأشكال فحسب، التى تتعين فيها هذه الأشياء» ـ على الرغم من هذا فإنهما يسلمان بأنه من الممكن أن يشير «خطاب آخر نقدى أو تكميلى» إلى تلك الأشياء (١٩٧٧أ، ص ١٩). ومع ذلك فإنهما لم يشرحا هذه الإمكانية، كما أنها غير متساوقة مع مزاعمهما الأخرى.

الفصل الخامس : حفريات المعرفة عند فوكو :

١ ـ كتاب الجنون والحضارة Madness and Civilization هو ترجمة للطبعة الفرنسية المختصرة (Paris : Plon, 1961). وقد قدم الناشر (بلون) كذلك النص الكامل تحت عنوان : الجنون والخلل العقلى ؛ تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى Folie et déraison, Histoire de la folie à lâge classique (1961).

٢ ـ هناك عمل مهم فى هذا الحقل، طوره دومنيك لوكور (انظر ثبت المراجع).

ثبت المراجع

ليس هذا ثبتاً شاملاً للمراجع، ولكنه ـ على الأصح ـ قائمة بالكتابات التى اقتبست منها وناقشتها، يتلوها ملاحظات سريعة تتعلق بموضوعات إضافية، وتقدم المراجع ـ بعد ذكر العنوان الرئيسى لأى مجموعة ـ تفصيلات عن المقالات والمقابلات الخاصة إلخ، التى استُغلت فيما قمت به من مناقشة. وعندما تكون المادة قد ترجمت فيما بعد إلى الإنجليزية، أو نشرت فى مجلد ضمن مواد أخرى، تذكر تواريخ الطبعة الأولى بين معقوفتين. وتذكر هذه التواريخ فى البداية عند الإشارة إلى المرجع فى النص. وقد وضعت علامة النجمة قبل تلك العناوين التى قد يفيد القارئ (ذكراً كان أو أنثى) الراغب فى أن يصبح على دراية بموضوعات الخطاب ونظرياته التى قدمتها هنا ـ قد يفيد من الرجوع إليها أكبر الفائدة. على أن ظهور علامة النجمة أو اختفاءها لا يتضمن استحسان مصدر بعينه أو استهجانه. وقد ركزت فى الملاحظات السريعة الخاصة بالأجزاء الإضافية على الدراسة المتاحة فى اللغة الإنجليزية.

References

Adlam, Diana and Henriques, Julian and Rose, Nikolas and Salfield, Angie and Venn, Couze and Walkerdine, Valerie (1977) "Psychology, ideology and the human subjects". Ideology and Consciousness, 1, 5 - 56.

* Althusser, Louis (1971) Lenin and Philosophy and Other Essays, trans. Ben Brewster. London: New Left Books. Contains:

[1968 a] "Philosophy as a Revolutionary Weapon".

[1968 b] "Lenin and Philosophy".

[1970] "Ideology and Ideological State Apparatuses (Notes towards an Investigation)".

Althusser. Louis (1976a) Positions (1964 - 1975). Paris: Éditions Sociales. Contains:

[1971] "Marxisme et lutte de classe".

* Althusser, Louis (1976b) Essays in Self - Criticism, trans. Grahame Lock. London: New Left Books. Contains :

[1973] "Reply to John Lewis".

[1974] "Elements of Self- Criticism".

[1975] "Is it Simple to be a Marxist in Philosophy?".

* Althusser, Louis (1978) "What Must Change in the Party" [1978], trans. Patrick Camiller. New Left Review, 109, 19 - 45.

Althusser, Louis and Balibar, Étienne (1970) Reading Capital [1968, 2nd edn], trans. Ben Brewster. London: New Left Books.

Balibar, Renée (1974) Les Français fictifs: le rapport des styles littéraires au français national. Paris: Hachette.

* Balibar, Renée (1978) "An Example of Literary Work in France: George Sand's "La mare au diable"/ "The Devil's Pool" of 1864". trans. John Coombes. In 1848: The Sociology of Literature, ed. Francis Barker, John Coombes, Peter Hulme, Colin Mercer and David Musselwhite, Colchcster: University of Essex.

Barthes, Roland (1977) Image- Music- Text, trans. Stephen Heath. London: Fontana. Contains:

[1971] "Writers, Intellectuals, Teachers".

Belsey, Catherine (1980) Critical Practice. London : Methuen.

Burke, Edmund (1793) Reflections on the Revolution in France, 12th edn, [1790]. London: J. Dodsley.

Centre for Contemporary Cultural Studies (1981) Unpopular Education: Schooling and Social Democracy in England since 1944. London: Hutchinson.

Davies, Tony (1981) "Education, Ideology and Literature" [1978]. In Culture, Ideology and Social Process, ed. Tony Bennett, Graham Martin, Colin Mercer and Janet Woollacott, London: Batsford.

Deleuze, Gilles (1977) "Intellectuals and Power: A Conversation between Michel Foucault and Gilles Deleuze" [1972]. In Michel Foucault, Language, Counter- Memory, Practice, trans. Donald Bouchard and Sherry Simon, Oxford: Blackwell.

Deleuze, Gilles and Guattari, Félix (1981) Rhizome [1976], trans. Paul Foss and Paul Patton. *IEC*, 8, 49 - 71.

Doyle, Brian (1982) The hidden history of English studies' in Re- Reading English, ed Petter Widdowson, London: Methuen.

Eagleton, Terry (1983) Literary Theory: An Introduction, Oxford: Blackwell.

Eagleton, Terry (1984) The Function of Criticism: From The Spectator to Post- Structuralism. London: Verso and New Left Books.

Easthope, Antony (1983) "The Trajectory of Screen, 1971- 79". In The Politics of Theory, ed. Francis Barker, Peter Hulme, Margaret Iversen and Diana Loxley, Colchester: University of Essex.

Edelman, Bernard (1979) Ownership of the Image: Elements for a Marxist Theory of Law (1973), trans. Elizabeth Kingdom: London: Routledge and Kegan Paul.

Finn, Dan and Grant, Neil and Johnson, Richard (1978) "Social Democracy, Education and the Crisis". In On Ideology. Centre for Contemporary Cultural Studies, London: Hutchinson.

* Foucault, Michel (1967) Madness and Civilization: A History of Insanity in the Age of Reason [1961], trans. Richard Howard. London: Tavistock.

Foucault, Michel (1969) L'arohéologie du savoir. Paris Gallimard.

Foucault, Michel (1970) The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences [1966]. London: Tavistock.

* Foucault, Michel (1972) The Archaeology of Knowledge [1969], trans. A. M. Sheridan Smith. London: Tavistock.

Foucault, Michel (1973) The Birth of the Clinic: An Archaeology of Medical Perception [1963], trans. A. M. Sheridan. London: Tavistock.

* Foucault, Michel (1977a) Language, Counter- Memory, Practice, trans. Donald Bouchard and Sherry Simon. Oxford: Blackwell. Contains:

[1969] "What Is an Author?".

[1971a] "History of Systems of Thought".

[1971b] "Revolutionary Action: "Until Now"'.

[1972] "Intellectuals and Power: A Conversation between Michel Foucault and Gilles Deleuze".

* Foucault, Michel (1977b) Discipline and Punish: The Birth of the Prison [1975], trans. Alan Sheridan. Harmondsworth: Allen Lane, Penguin Books.

Foucault, Michel (ed.) (1978) I. Pierre Riviére, having slaughtered my mother, my sister and my brother... [1973]. Harmondsworth: Penguin Books.

* Foucault, Michel (1979) The History of Sexuality, Volume 1: An Introduction [1976], trans. Robert Hurley. Harmondsworth: Allen Lane, Penguin Books.

* Foucault, Michel (1980a) Power / Knowledge: Selected Interviews and other Writings 1972- 1977, trans. Colin Gordon. Brighton: Harvester. Contains:

[1972] "On Popular Justice: A Discussion with Maoists".

[1975a] "Prison Talk".

[1975b] "Body/ Power".

[1976] "Questions on Geography".

[1977a] "Two Lectures'.

[1977b] "Truth and Power".

[1977c] "Power and Strategies".

[1977d] "The Eye of Power".

[1977e] "The Confession of the Flesh".

Foucault, Michel (1980b) "The History of Sexuality: Interview" [1977], trans. Geoff Bennington. Oxford Literary Review, 4, 2, 3 - 14.

* Foucault, Michel (1981) :The Order of Discourse" [1971], trans. Ian McLeod. In Untying the Text: A Post- Structuralist Reader, ed. Robert Young. London : Routledge and Kegan Paul.

Foucault. Michel (1982) "Afterword: The Subject and Power". In Hubert L. Dreyfus and Paul Rabinow, Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics, Brighton: Harvester.

Foucault, Michel (1984a) Histoire de la sexualité: 2. L'usage des plaisirs. Paris: Gallimard.

Foucault. Michel (1984b) Histoire de la sexualité: 3 Le souci de soi. Paris: Gallimard.

Giddens, Anthony (1982) "A Reply to my Critics". Theory, Culture and Society, 1, 2, 107 - 13.

Gordon, Colin (1979) "Other Inquisitions". I E C, 6, 23 - 46.

Gramsci, Antonio (1979) Letters From Prison [1946], trans. Lynne Lawner. London: Quartet Books.

* Hall, Stuart (1978) "Some Problems with the Ideology/ Subject Couplet". Ideology and Consciousness, 3, 113 - 21.

Harvey, Sylvia (1978) May ' 68 and Film Culture. London: British Film Institute.

Hawkes, Terence (1977) Structuralism and Semiotics. London: Methuen.

Hindess, Barry (1977) Philosophy and Methodology in the Social Sciences. Hassocks: Harvester.

Hindess, Barry and Hirst, Paul (1975) Pre- Capitalist Modes of Production. London: Routledge and Kegan Paul.

* Hindess Barry and Hirst, Paul (1977a) Mode of Production and Social Formation. London: Macmillan.

Hindess, Barry and Hirst, Paul and Cutler, Antony and Hussain, Athar (1977b) Marx's "Capital" and Capitalism Today, vol. 1. London: Routledge and Kegan Paul.

Hindess, Barry and Hirst, Paul and Cutler, Antony and Hussain, Athar (1978) Marx's "Capital" and Capitalism Today, vol. 2. London: Routledge and Kegan Paul.

* Hirst, Paul (1979) On Law and Ideology. London: Macmillan. Contains two earlier publications:

[1976a] "Problems and Advances in the Theory of Ideology".

[1976b] "Althusser and the Theory of Ideology".

Johnson, Richard (1972) The French Communist Party versus the Students: Revolutionary Politics in May- June 1968. New Haven and London: Yale University Press.

Laclau. Ernesto (1980) "Populist Rupture and Discourse", trans. Jim Grealy. Screen Education, 34, 87 - 93.

* Lecourt, Dominique (1975) Marxism and Epistemology: Bachelard, Canguilhem and Foucault, trans. Ben Brewster. London: New Left Books. Contains:

[1972] "On Archaeology and Knowledge (Michel Foucault)".

Macherey, Pierre (1977) "Problems of Reflection". trans. John Coombes. In Literature, Society and the Sociology of Literature, ed. Francis Barker, John Coombes, Peter Hulme, David Musselwhite and Richard Osborne, Colchester: University of Essex.

Marx, Karl (1976) Capital, vol. 1 [1867], trans. Ben Fowkes. Harmondsworth: Penguin Books.

Miller. Peter (1980) "The Territory of the Psychiatrist". IEC, 7, 63 - 105.

* Moi, Toril (1980) "Sexual/ Textual Politics". In The Politics of Theory, ed. Francis Barker, Peter Hulme, Margaret Iversen and Diana Loxley, Colchester: University of Essex.

Paine, Thomas (1791) Rights of Man: Being an Answer to Mr. Burke's attack on the French Revolution, part 1. London: J. Johnson.

* Pêcheux, Michel (1978) "Are the Masses an Inanimate Object?" In Linguistic Variation: Models and Methods, ed. David Sankoff, New York: Academic Press.

* Pêcheux, Michel (1982) Language, Semantics and Ideology: Stating the Obvious [1975], trans. Harbans Nagpal. London: Macmillan. Contains new appendix.

[1982] "The French Political Winter: Beginning of a Rectification (Postscript for English Readers)".

Pêcheux, Michel (1983) "Ideology: Fortress or Paradoxical Space". In Rethinking Ideology: A Marxist Debate, ed. Sakari Hänninen and Leena Paldán, New York: International General.

*Poulantzas, Nicos (1978) State, Power, Socialism [1978], trans. Patrick Camiller. London: New Left Books.

Price, Richard (1790) A Discourse on the Love of our Country, 6th edn. London: T. Cadell.

Saussure, Ferdinand de (1974) Course in General Linguistics [1916], trans. Wade Baskin. London: Fontana.

Seale, Patrick and McConville, Maureen (1968) French Revolution 1968. London: Heinemann, and Harmondsworth: Penguin Books.

Singer, Daniel (1970) Prelude to Revolution: France in May 1968. London: Jonathan Cape.

Skillen, Tony (1978) "Post- Marxist Modes of Production". Radical Philosophy, 20, 3 - 8.

Soboul, Albert (1974) The French Revolution 1787 - 1799 [1962], 2 vols, trans. Alan Forrest and Colin Jones. London: New Left Books.

Thompson, John O. (1981) "Real Pictures, Real Pleasures?" Screen Education, 38, 89 - 94.

* Volovinov, V. N. (1973) Marxism and the Philosophy of Language [1930], trans. L. Matejka and I. R. Titunik New York: Seminar Press,

Williams, Raymond (1977) Marxism and Literature. Oxford: Oxford University Press.

obeikandl.com

ملاحظات لمزيد من القراءة

فى الوقت الذى يقدم فيه ثبت المراجع السابق أساساً للانطلاق، تبقى هناك مواد إضافية أود أن أذكرها. لقد ركزت فى عمل ألتوسير على موضوعات الإيديولوجيا والخطاب، منحياً مقالاته المبكرة. وهذه المقالات، التى هى مختلفة ومهمة مع ذلك، قد جمعت أساساً فى كتابه المسمى *من أجل ماركس* [١٩٦٥]، الذى ترجمه بن بروستر (London: New Left Books, 1977)، وفى كتابه المسمى *منتسكيو وروسو وماركس: السياسة والتاريخ*، الذى ترجمه بن بروستر (London: New Left Books, 1972). وإلى جوار مقالات ما بعد ١٩٦٨ التى ناقشتها، هناك عملان لهما أهميتهما عن «الأهمية التاريخية للمؤتمر الثانى والعشرين» [١٩٧٦] وعن «أزمة الماركسية» [١٩٧٧]. أما العمل الأول منهما ـ وقد تركز على الحزب الشيوعى الفرنسى PCF ـ فقد تضمنه كتاب إتيين باليبار E. Balibar الذى ترجمه جراهام لوك Grahame Lock، والذى يرد فيما بعد؛ ويمكن الوقوف على صياغة مختلفة له بعض الشئ، من ترجمة بن بروستر Ben- Brewster فى New Left Review 104 (1977, 3 - 22.). أما العمل الثانى الذى ترجمه جراهام فيردفى Marxism Today, 22 (1978, 215- 20, 227.

وهناك مناقشات مفيدة لنظريات ألتوسير فى كتاب عن الإيديولوجيا On Ideology (London : Hutchinson, 1978)، الصادر عن مركز الدراسات الثقافية المعاصرة. هذا فضلاً عن انحياز كثير من المجلات للأفكار المطروحة، وعلى وجه الخصوص مجلة New Left Review، وكذلك مجلة Screen، وإن كان ذلك بصورة انتقائية؛ ومجلة Economy and Society، وإن كان ذلك بصورة مبهمة على أحسن تقدير. ولكن بعض الاستجابات الكارهة للمنطلق اللينينى فى عمل ألتوسير كان ينحو إلى الرفض؛ ومثال ذلك كتاب E.P. Thompson المسمى (The Poverty of Theory, and Other Essays. London: Merlin, 1978). وفى فرنسا أحدثت نظريات ألتوسير كثيراً من الجدال والاهتمام الإيجابى.

وإلى جانب ما حققه بيشو من تطورات أساسية فى نظرية الخطاب، وكذلك أبحاث رينيه باليبار Renée Balibar (انظر المراجع)، تمت دراسات مهمة فى حقول الفلسفة وتاريخ

العلوم على يد إتيين باليبار ودومينيك لوكور Dominique Lecourt . وهناك مقالان لإتيين باليبار هما : "On Literature as an Ideological Form" [1978]، و "Marx, the Jok-er in the Pack" [1981]. والمقالة الأولى، وقد كتبت بالاشتراك مع بيير ماشيرى، قد اشتمل عليها مصنف روبرت ينج Robert Young الذى يحمل عنوان : Untying the Text A Post structuralist Reader (London: Rontledge and Kegan Paul, 1981)، والمقالة الثانية ترجمها دافيد وطسون David Watson، وقد ظهرت فى مجلة Economy and Society, 14 (1985) 1- 27. وكتاب باليبار المهم، المسمى On the Dictatorship of the Proletariat [1976] متاح فى اللغة الإنجليزية بترجمة جراهام لوك London: New Left Books, (1977)، كما هو الشأن فى دراستى دومينيك لوكور عن Marxism and Episte-mology (انظر المراجع)، وعن Proletarian Science? The case of Lysenko [1976] بترجمة بن بروستر : (London: New Left Books, 1977).

لقد أخذ تطور نظرية الخطاب وتحليله فى المركز الدولى للبحث العلمى Centre National de la Recherche Scientifique (فى باريس)، وعلى وجه الخصوص على يد ميشال بيشو Michel Pecheux، وعلى يد بول هنرى Paul Henry كذلك (انظر : *Le mauvaise Outil: Langue, Sujet et discourse*, Paris Klinchsiech, 1977)، وعلى أيدى آخرين ـ أخذ يحظى بالالتفات إليه بعض الشىء خارج فرنسا ؛ فقد ناقش مارك كزنز Mark Cousins عمل بيشو، وذلك فى مقاله «النكات وعلاقتها بأسلوب الإنتاج» Jokes and their relation to the mode of Production المنشور فى مجلة Economy and Society, 14 (1985), 94 - 112 كما ناقشه كولن ماكيب Colin MacCape فى مقاله «عن الخطاب» المنشور فى مجلة Economy and Society, 8 (1979), 579- 307، وروجر وودز Roger Woods فى مقاله «تحليل الخطاب : عمل ميشال بيشو»، المنشور فى مجلة Ideology and Consciousness, 2 (1977), 57 - 79، أما كتاب *اللغة التى لا وجود لها* : La langue introuvable (Paris Mas-pero, 1981)، فيستحق الاهتمام كذلك.

وقد كان للمناقشات التى دفع بها هندس وهيرست أعظم الأثر على العلوم الاجتماعية ؛ وكانت مجلة Economy and Society المنبر المتاح لهما. وقد قدم كتاب الفلسفة الراديكالية Radical Philosophy أفكاراً نقدية نافعة، كما اشتمل الكتاب الذى قام على نشره جون

ميفام John Mepham ودافيد ـ هلل روبن David - Hillel Robin والمسمى : *Issues in Marxist Philosophy, Volume III - Epistemology, Science, Ideology* (Brighton, Harvester, 1979 اشتمل على المزيد من النقاش النقدى.

وهناك مجلتان أخريان هما : Oxford Literary Review و-Ideology and Conscious ness (سميت فيما بعد باسم مختصر هو I & C، كانت لهما فائدة على وجه الخصوص فى جمع كثير من مقالات ميشال فوكو وأحاديثه الصحفية المتفرقة. وقد اشتملت المجلة الثانية كذلك على دراسات مروجة لمناهج فوكو الحفرية، كدراسة كارن جونز Karen Jones وكيفين وليامسون Kevin Williamson المسماة «مولد الفصل المدرسى The Birth of the School-room» والمنشورة فى I & C, 6 (1979), 58 - 110، وكترجمات لبعض المقالات المتصلة بالموضوع، فى كتاب ديليز Deleuze وجاتارى Guattari المسمى Rhizome (انظر المراجع)، وتشد كتابات فوكو المختلفة إليها اهتماماً متزايداً، كما أن هناك عدداً من التعليقات عليها له جدواه، فى الوقت الذى ينتقص فيه من النزعة المادية فى دراسات فوكو؛ من ذلك على وجه الخصوص كتاب ألان شريدان Alan Sheridan المسمى *Michel Foucault: The will to truth* (London: Tavistock 1980) وكتاب هربرت ل. درايفوس Hubert L. Dreyfus وبول رابينو Paul Rabinow المسمى : *Michel Foucault Beyond Structuralism and Hermeneutics* (Brighton: Harvester, 1982).

ثبت ببعض المصطلحات

arbitrary	اعتباطى
archaeological excavation	التنقيب الأثرى
archaeology	علم الآثار ـ الحفريات
asylum	مصحة ـ بيمارستان
authorship	صنعة التأليف
clinical medicine	الطب العيادى
continuities	الكيانات المتواصلة ـ السيناريوهات
convention	العرف
counter- discourse	الخطاب المضاد
counter- identification	التماهى المضاد
counter- production	الإنتاج المضاد
crimenology	علم الجريمة
decentring	تقويض المركز
delinquent	الجانح
discourse	الخطاب
discursive	خطابى
disciplinary mechanisms	آليات التنظيم
discipline	حقل معرفى ـ نظام
disidentification	اللاتماهى (التماهى المفقود)
empiricism	النزعة التجريبية
episteme	الأساس المعرفى
epistemology	نظرية المعرفة

obeikandl.com

homosexuality	الشذوذ الجنسى
humanism	النزعة الإنسانية
identification	التماهى
ideological state apparatuses	أجهزة الدولة الإيديولوجية
individuality	الفردية
individualization	التفريد
institution	مؤسسة
mechanism	آلية
non - being	اللاوجود
non - conforming	الخارج على النظام
normal	سوىّ
nothingness	العَدم
objectivity	الموضوعية
pluralism	التعددية
post- structuralism	ما بعد البنيوية
psychiatry	الطب النفسى
reformist	إصلاحى
repressive- apparatus	الجهاز القمعى
sameness	التماثل
self- consciousness	الوعى الذاتى
self- criticism	نقد الذات

obeikandl.com

sexuality	النشاط الجنسى
social formations	التشكيلات الاجتماعية
structuralism	البنيوية
subjection	الاخضاع
subjectivity	الذاتية
system	النظام
ubnormal	شاذ
unreason	الجنون

obeikandl.com